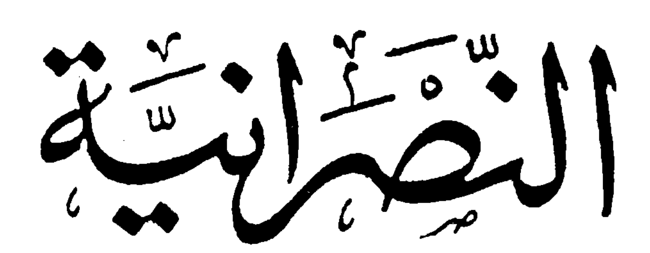


محاضرات في



النصرانية

تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى
وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

تأليف

فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة

رحمه الله

طبع ونشر

الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرياض - المملكة العربية السعودية

وقف لله تعالى

١٤٠٤هـ

الطبعــة الرابعــة

١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إفتتاحية الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق إلى العالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، واشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد ان محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . وبعد ..

فلما كان من شأن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد – وهي رائدة الدعوة في هذه البلاد – ان تتولى طبع واحياء الكتب التي تشرح حقيقة الإسلام وتبين مبادئه حسب مفهوم هذا الجيل ، وكذا ترجمة الكتب الإسلامية إلى لغات كثيرة متعددة لاجل نشر الإسلام . وإلى جانب هذا اهتمت بالكتب التي ترد الشبهات التي يثيرها الاعداء حول الإسلام ، وأيضاً كشف اضاليل الفرق ومفترياتها سواء كانت هذه الفرق ممن تدعى الإسلام ، أو كانت من الفرق التي لا تمت للإسلام بصلة وهي كثيرة .

ولما كان كتاب « محاضرات في النصرانية » تأليف الشيخ محمد أبو زهرة « رحمه الله » من الكتب الفريدة في مجاله حيث يكشف النصرانية ، ويبين الأدوار التي مرت بها في تدرج عقيدتها من الوحدانية إلى التثليث ودور مجامعها في تحريف العقيدة النصرانية ، وذلك بأسلوب هادىء رصين جمع فيه غرر الفوائد .

لأجل ذلك كله قررت الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد طبع هذا الكتاب وتوزيعه على نفقتها على طلبة العلم لما رأت الحاجة ماسة لهذا الكتاب ولعدم توفره في مكاتبنا المحلية . وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذي بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، والصلاة والسلام على النبي الأمي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبي الرحمة الذي بعث على فترة من الرسل ، بعد أن ضلت الأفهام ، وحرفت الحقائق وسيطرت الأوهام ، وعلى آله واصحابه الذين كانوا كالنجوم بين العالمين .

أما بعد فهذه محاضراتي في النصرانية أعيد طبعها ، بعد أن ألح الكثيرون في طلب الاعادة ، اذ تعذر على مريدي قراءتها الحصول عليها ، حتى انها عندما قررت دراستها على طلبة معهد الدراسات الإسلامية لم يجد الدارسون ما يراجعون فيه ، فلم يكن بد من ان يعيد المعهد طبعها ليعين الدارسين ، ولينشر تلك الحقائق ، من غير تهجم على متدين ، ولا مضايقة لغير مسلم ، لأن البحث الذي يتبع فيه المنهاج العلمي السليم ، لا يصح أن تضيق به الصدور ، ولا ن تنزوي عنه العقول ، واذا كانت فيه ثغرات يرأبها النقد المنطقي المستقيم ، ويعالجها البحث العلمي القويم من غير عوج في القول ، ولا التواء في القصد .

لقد كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذي يجمع الحقائق ، ويعرضها ، وقد تماسك بعضها ببعض ، ليتكون من ذلك مجموعة علمية تهدي ولا تضل ، وما كنا نجهد التاريخ لنسيره ، ولكنا خضعنا له ، وهو الذي كان يسيرنا ، وكنا في ذلك كالقاضي العادل يخضع للبيانات التي تكون بين يديه ، وهي التي تحكم في الحكم الذي نسجله ، لا نغير ولا نبدل ، ولا ننحرف بها عن النتائج التي تؤدي اليها مقدماتها ، فنسير حيث يسير بنا الدليل من غير انحراف ولا تحريف .

وما كانت البيانات التي بين أيدينا من مصادر إسلامية ، أو من اعداء المسيحية . بل كانت من كتاب المسيحيين أنفسهم التي سجلوها في تاريخها ، كتبها المتقدمون ، ورددها المتأخرون ، فهي شهادات من أهلها استنطقناها ، فنطقت ، واستهديناها ، فهدت ، واسترشدنا بها فأرشدت ، وما ضنت .

واذا كان من اخواننا[١] وعشرائنا من تململ من محاضراتنا ، أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به ، فانا علم الله ما قصدنا بكلامنا احراجاً ولا ايلاماً ، انما أمانة العلم هي التي جعلتنا لا نقدم لتلاميذنا الذين نلقاهم والذين لا نلقاهم بالخطاب ، بل نلقاهم بالكتاب ، الا ما نعتقد أنه الحق الناصع ، وقد وجه الينا نقد من بعض المخلصين من اخواننا[٢] المسيحيين في مقالات متتابعة نشرتها احدى المجلات المسيحية ، فما ضاقت صدورنا ، بل ذهبنا الى الناقد في داره ، وطلبنا اليه أن يطلعنا على كل الأعداد التي تشتمل على نقد لنا ، لنصحح خطأ وقعنا فيه ، أو لنبدل حكماً ما أنصفنا فيه ، عملاً بقوله تعالى « **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا أمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون** » .

وإنا لنحسب أنه ليس من بين اخواننا[٣] أقباط مصر من ظلموا ، فما كان لنا الا أن نتقبل النقد بقبول حسن ، ونتبعه في كل ما وجه الينا مستطيبين ذلك ، حتى ما كان منه تهجم علينا . فان المخلص يستمع ، ولو كان في كلام مخالفة هجوم ، أو تهجم بغير الحق .

وما وجدنا في النقد ما يغير حكماً ، ولقد أرسل الينا بعض أبنائنا المسيحيين رسائل نقد قدرناها ، فقرأناها ، وكان كتابها يخرجون عن حد

(١)، (٢)، (٣)، (٤) كذا في الأصل . وكان الأولى أن يقال اخواننا في الوطن لأنه لا رابطة بين الإسلام والكفر . وبالله التوفيق . أ.هـ مصحح .

النقد أو الدفاع الى ما لا يحسن من قول ، فما ضاقت صدورنا ، وحاولنا أن ننتفع منها ، ولكنا ما وجدنا فيها أيضاً ما يبرر لنا تغيير حكم حكمنا به ، والى هؤلاء وأولئك نعتذر .

ولا يصح أن يتبرم أحد من اخواننا[٤] وأبنائنا من كلام نسوقه لطلابنا ، معتقدين أنه الحق الذي لا ريب فيه ، فلو كان أهل كل دين تضيق صدورهم بالبحث والدرس ، لكان حقاً علينا معشر المشتغلين بالدراسات الإسلامية أن تذهب نفوسنا حسرات مما يكتبه بعض علماء أوروبا عن الإسلام ، يفترون على حقائقه ولا يدرسونه دراسة موضوعية ، بل يدرسونه دراسة ذاتية محرفين الكلم عن مواضعه ، ومع ذلك ندرس كلامهم ، ونضع الصواب منه في موضعه ، ونضع الباطل في مكان سحيق ، نأخذهم الى المنطق ولا ننحرف معهم عن قصد السبيل .

وأخيراً نقول لاخواننا[١] اننا نؤمن بالمسيح عليه السلام ، ونؤمن بمحمد ﷺ وسائر النبيين « **قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون** » .

محمـــد أبـو زهـرة

٢٧ من ذي القعدة سنة ١٣٨١هـ
١٩ من مارس سنة ١٩٦٦م .

(١) كذا في الأصل – وكان الأولى أن يقال اخواننا في الوطن ، لأنه لا رابطة بين الإسلام والكفر .أ.هـ مصحح .

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحيــة الطبعــة الثانيــة

الحمد لله الذي خلق فقدر ، وخلق آدم من طين ، وعيسى بن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين . فيثبت أن الخلق بالارادة لا بالعلية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين ، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .

أما بعد ، فقد جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال :

ثلاثة لهم أجران : « رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه . وآمن بمحمد ، والعبد المملوك اذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » .

وبقبس من هذا الروح السمح كتبنا كتاب محاضرات في النصرانية ، نرجو به مع احقاق الحق الهداية ، لا نهاجم اعتقاداً ، ولا نبطل عقيدة ، بل ننير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلكها من يريد الرشاد ، ومن يرجو السداد ، ولكننا في عصر فهم الناس فيه الدين منزعاً جنسياً ، ولم يفهموه حقاً اعتقادياً ، ولا تهذيباً نفسياً ، ولا خلاصاً روحياً ، فكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية الى القلوب ، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

وقد كان الناس في الماضي يوجد من بينهم من يقول «**انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون**» أما الآن فالناس جميعاً غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنساً ، والاستمساك به من القومية أو ما يشابهها ، فيكون العار على من خالف ، وان كانوا يعلمون أن فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية في التدين ظهر نقد لكتابي هذا من بعض بني وطني غير المسلمين ، وكنت (علم الله) مستريحاً لظهوره ، فجمعت النقد ، وشكرت الناقد ، وتغاضيت عن عبارات نالني بها ، لأنها من فلتات القلم ، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفاً حرفاً ، لأصحح به خطأ جرى في الكتاب ، أو سوء تفسير فسرناه ، أو تخريجاً بعيداً عن المعنى خرجناه .

ولكني وجدت النقد خاليا من ذلك في جملته ، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب ، يثير اعتبار الدين جنساً ، ويدفعه التعصب الشديد ، ويحاول توهين المكتوب ، حتى انه في سبيل ذلك يعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضاً ، والمعلق على شرط متضارباً ، لأن صدر الكلام غير الوصف ، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وان كان في النقد ما يفيد أنه أثبت ان بعض اخواننا تألم من عبارات جاءت في كتابنا ، فغيرناها ان لم يكن في التغيير ما يمس الجوهر ، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن اعادة طبع الكتاب ، مع الألحاح من الكثيرين وبعضهم من اخواننا[١] المسيحيين ، وأحجمنا عن ذلك نحو ست سنوات ، ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية ، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر ، وان عند اخواننا[٢] من سعة الصدر ما يتسع لذلك ، وخصوصاً أن الكتاب معروف في أمريكا وأوربا والهند . فقد ترجم الى الانجليزية ، ولخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصاً كاملاً ، وترجم الى الفرنسية والأردية .

---

(١) ، (٢) كذا في الأصل ، وكان الأولى أن يقال : اخواننا في الوطن لأنه لا رابطة بين الإسلام والكفر . وبالله التوفيق . أ.هـ مصحح .

فاذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلاً للآثار العلمية ، وان خالفوها – فانه من نقص الحرية الفكرية في مصر أن يضيق صدر بعض ابنائها حرجاً باعادة طبع كتاب سجله المسيحيون في لغاتهم .

لهذا أقدمت على اعادة طبع الكتاب بعد طول الاحجام ، راجياً من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، انه نعم المولى ونعم النصير .

محمد أبو زهرة

٩ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨هـ .

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى بن مريم من النبيين الصديقين ، ومن عباد الله الصالحين وأولي العزم من الرسل .

أما بعد . فقد عهد الي تدريس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والارشاد من كلية أصول الدين فألقيت محاضرات في النصرانية ، هذه خلاصتها ، وتلك لبابها ، ولقد عنيت ببيانها في أدوارها المختلفة متبعاً في بيان المسيحية الحاضرة سلسلة أسنادها المتصلة . فكان أول السلسلة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهي بعصرنا الحاضر ، هذا مبدأ السند وهذا منتهاه ، فالسند اذن ينقَطع بين المسيح عليه السلام ، والمجمع الأول من المجامع المقدسة ، وان انقطاع السند في هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذي لحق النصارى فيها ، حتى كانوا يستخفون ويتعبدون في السر . فلا يعلنون دينهم الذي ارتضوا ، ويفرون به فراراً ان كشف أمرهم ، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حد السيف أو نار العذاب ، وقد اعترف بقطع السند مجادلوهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع .

وإنا ازاء ذلك العجز أو عدم توافر أسباب العلم ابتدأنا بحثنا في دينهم بكتبهم التي ألزم المسيحيون بها بعد قرار المجامع بالالزام ، ثم تتبعنا في البحث سير المجامع ، نسير في مسارها ، ونتجه في اتجاهاتها ، ولكننا لا نكتفي بدراسة قرارات المجمع من المجامع ، بل ندرس البواعث التي بعثت

الى انعقاده ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذي سبقه ، والذي جاء المجمع لحسمه ، ثم انتهى الى تشعيبه وتوسيع زاويته .

وان عنايتنا بتفصيل البواعث التي أدت الى انعقاد المجمع الأول ، وبيان قراراته ، وكيف تلقى جمهور المسيحيين ، وخاصة رجال الدين تلك القرارات ، فقد أزالت الستار عما أكنته غياهب التاريخ في الفترة التي كانت بين المسيح ، وهذا المجمع ، بل ان تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخي لنصل الى ضوء نعشو اليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح في عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد ، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازنا فيها بين المسيحية الحاضرة وفلسفة الرومان واليونان في تلك الفترة ، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القارىء أو نسبقه الى الاستنباط ، بل ألقينا اليه بالمقدمات ، وتركنا له استخراج نتائجها ، ليشاركنا فيما وصلنا اليه باقتناعه ، ولكيلا نملأ عقله ، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة الى بيان العقيدة ، فجلينا أدوارها ، وبينا ما قام حولها من مناقشات وخلافات ، وبينا كل فرقة ومنبعثها ، والمجمع الذي انبعثت من بعده ، وما أحصينا فرقهم عداً ، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلاً ، بل عنينا بالفرق الكبرى ، وعنينا بتفصيل العقيدة دون سواها .

وعلم الله أني لبست رداء الباحث المنصف ونظرت بالنظر غير المتحيز ، وتخليت عن كل شيء سواه ، لأصل الى الحق وصول المجتهد الحر ، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره ، والمأخوذ بسابق اعتقاده ، ولكني انتهيت كما ابتدأت ، مؤمناً بالله الواحد الأحد ، الذي ليس له والد ولا ولد .

واني لأهدي كتابي هذا الى كل مسيحي طالب للحقيقة يسير في مسالكها لا أبغى به غلباً في جدال ، ولا سبقاً في نزال ، ولكن أبغى به الحق المجرد « **يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** » .

محمد أبو زهرة

تمهيـــد

١- عسير على المرء ان يكتب في رأي يخالف رأيه ، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأي ، كما يجول بخاطر صاحبه ، وينبعث في نفسه ، فيبين دوافعه وغاياته ، واذا كان ذلك واضحاً في رأي مخالف يرتأى ، فكيف تكون الحال اذا كانت المخالفة في عقيدة تعتنق ، وتتغلغل في أعماق النفس ، وتستكن في أطوائها !! ان الطريق حينئذ يكون أوعث ، ومسالكه أضيق ، لذلك كان الطريق غير معبد أمام الباحث الذي يريد أن يكتب في النصرانية ، كما يعتقد النصارى ، ويصورها أمام القارىء ، كما تجول بخاطر معتنقيها ، ويفرض من نفسه ناظراً غير متحيز ، يبين العقيدة ، كما هي في نفس أصحابها ، لا كما ينبغي أن تكون ، أو كما يعتقد هو ، لأن الباحث خلع نفسه مما تعتنق وتؤمن به ، ويجردها تجرداً تاماً مما قد صار منها بمنزلة الملكات ، وخالط الاحساس والمشاعر ، واستولى على كل مسالك الآراء اليها ، وتصوير المسيحية كما يعتقد أصحابها ليس فقط عسيراً على الكاتب غير المسيحي ، بل انه عسير على الكتاب المسيحيين أنفسهم ، يستوي في ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين ، ولذلك يستعينون في تصويرها ، وادنائها الى العقول بضرب الأمثال ، والتشبيهات الكثيرة ، لتأنيس غريبها بالقريب المألوف ، والمشاهد المحسوس ولادخالها في العقل من الباب الذي يألفه ويعرفه ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

٢- ولكن البحث العلمي يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية ان أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجرداً من نزعاته السابقة على الدراسة ، غير جاعل لعقيدته سلطاناً على حكمه ، حتى لا نسيره في دراسته ، ونتحكم في اتجاهاته ، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم ،

والتزيد ليس من شيمة العلماء ، أو يدفعه لأن يتأول كلامهم بغير ما يريدون ، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها ، بل يدركها كما انعكست في نفسه ، وكما رسمت على قلبه ، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته .

ولذلك سنحاول – داعين الله مبتهلين اليه أن يلهمنا التوفيق – دراسة المسيحية ، مجردين من أنفسنا ناظراً غير متحيز عليها ، لنصورها كما هي ، وكما يعتقد أهلها ، ولنتمكن من أن نكتبها بروح الانصاف ، ولقد نضطر في سبيل ذلك الانصاف أن ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأي تصرف ، حتى ما يتعلق بالاعراب وأساليب البيان ، لكيلا يدفعنا التصرف في التعبير الى تغيير الفكرة ، أو تحريف القول عن مواضعه . وسنجتهد ما استطعنا في تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال ، ان لم نجد بداً من ذلك .

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم ، وتعرف غاياته ومراميه لا نترك النقد العلمي النزيه ، الذي يستمد قوانينه من بدائه العقول وأحكام المنطق ، وخصوصاً ما يتعلق بكتبهم ، لأنه اذا كان الانصاف قد طالبنا بألا نتزيد على ما عندهم ، أو نحرفه عن مراده ومرماه ، فالانصاف أيضاً يطالبنا بألا نهمل العقل ، والا خرج بحثنا عن معناه العلمي التاريخي ، وصار بحثاً لاهوتياً صرفاً ، وذلك ما لا نريد ، فلا يصح أن يدفعنا حرصنا على انصافهم الى ظلم العلم والحق والعقل .

المسيحية كما جاء بها المسيح عليه السلام

المسيحيـــة في القــرآن :

٣- قبل أن نخوض في المسيحية كما هي عند المسيحيين نتكلم في المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام ، وانا اذا تصدينا للمسيحية التي جاء بها المسيح نجد التاريخ لا يسعفنا بها ، اذ بعد العهد ، واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التي نزلت بالمسيحيين ، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والاثبات عملها ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وصار من العسير أن نميز الطيب من الخبيث ، والحق من الباطل ، والصحيح من غير الصحيح ، واننا معشر المسلمين لا نعرف مصدراً صحيحاً جديراً بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، فهما المصدران المعتمدان للمسلم في هذا ، وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين ، ولا على أنه هو المعتبر عندهم ، ولكن نكتبه ، ليتسق البحث ، ولنتم السلسلة .

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل ، التوحيد بكل شعبه ، التوحيد في العبادة ، فلا يعبد إلا الله ، والتوحيد في التكوين ، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له ، والتوحيد في الذات والصفات فليست ذاته بمركبة ، وهي منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى . فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى ما دعا إلا الى التوحيد الكامل ، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه : « **واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ما قلت**

هم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد » .

فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى ما دعا إلا الى التوحيد ، فغير التوحيد اذن دخل النصرانية من بعده ، وما كان عيسى إلا رسولاً لله رب العالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الانجيل ، وهو مصدق للتوراة ، ومحيى لشريعتها ، ومؤيد للصحيح من أحكامها ، وهو مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، وهو مشتمل على هدى ونور وهو عظة للمتقين ، وأنه كان على أهل الانجيل أن يحكموا بما أنزل فيه ، ولذلك قال الله تعالى : « **وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** » .

دعـــوة المسيـــح :

٤- ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لا توسط بين الخالق والمخلوق ، ولا توسط بين العابد والمعبود ، فالأحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس ، بل كل مسيحي يتصل بالله في عبادته بنفسه ، من غير حاجة الى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما ، وليس شخص - مهما تكن منزلته أو قداسته أوتقواه - وسيطاً بين العبد والرب في عبادته ، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب ، وما أثر عنه من وصايا ، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام - كما ورد في بعض الآثار ، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين - تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل

قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة ، وكان يحث على الايمان باليوم الآخر ، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبني الانسان في الدنيا ، اذ الدنيا ليست إلا طريقاً غايته الآخرة ، وابتداء نهايته تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام الى الزهادة في الدنيا ، والابتعاد عن أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب عن ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية ، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الانسان ، بل ان التوراة التي بأيديهم اليوم خلت من ذكر اليوم الآخر ، ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي أوعد به العاصين ، وثوابه الذي وعد به المتقين ، إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة ، وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسي في كتابه حياة المسيح : « الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية في نفس هذا العالم ، فانه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون في ذاكرة الله والناس الى الأبد ، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ، ويكونون معروفين عند الله ، أما الأشرار فلا ، هذا كان جزاء أولئك ، وعقاب هؤلاء ، ويزيد الفريسيون على ذلك أن الصالحين ينشرون في هذه الأرض يوم القيامة ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس ، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته ، وهكذا يتنعمون بانتصارهم ، وانخذال الأشرار أعدائهم ، وعلى ذلك تكون مملكتهم في هذا العالم نفسه » أ.هـ . فجاء المسيح عليه السلام مبشراً بالحياة الآخرة ، وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها ، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكرها بفعله ، فكانوا في ذلك الانكار سواء .

مريـم والمسيح في القرآن الكريم :

٥- واذا كانت شخصية المسيح هي اللب في المسيحية الحاضرة ،

وأساس الاعتقاد فيها ، وجب أن نبينها كما جاءت في القرآن ، كما سنبينها كما جاءت في المسيحية ، ليستطيع القارىء أن يوازن بين الشخصيتين . ويعرف أيهما أقرب الى التصور ، والعقل يتقبلها بقبول حسن ، ولنبدأ بأمـــه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام ، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها في سورة آل عمران ، فيقول تعالت كلماته : « **اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محرراً ، فتقبل مني انك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، واني سميتها مريم ، واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

هذه هي الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم ، وولادتها ، وتربيتها ، ويلاحظ القارىء ان العبادة والنسك أظلاها ، وهي جنين في بطن أمها الى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفاها الله لأمر جليل خطير ، فأمها وهي حامل بها نذرت أن يكون ما في بطنها محرراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدانته ، والقيام بشئونه ، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها ، فلما وضعت ، وكان نذرها على فرض الذكورة ، كما يبدو من اشارات النصوص القرآنية ، جددت العزم على الوفاء بالنذر ، وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحليل من النذر ، فكان ذلك الاصرار عبادة أخرى ، إذ وجدت في النفس داعيات التردد ، والرجوع والتحلل من الوفاء فكان كفها هذه الدَاعِيات والقضاء عليها عبادة أخرى ، ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا الى النسك والعبادة ، وقام على

تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبي من أنبياء الله الصديقين الصالحين ، فكفلها زكريا ، ووجهها الى العبادة الصحيحة ، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والاثم ، وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها اخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولا تحتسب ، ومن غير جهد ولا عنت ، حتى أثار ذلك عجب نبي الله كافلها فكان « **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم انى لك هذا ، قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

٦- ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التي تكونت في ظلها بريئة من دنس الرذيلة - لا يجد الشيطان سبيلاً أو منفذاً ينفذ الى النفس منها - تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاها الله تعالى له دون العالمين ، ولذا خاطبتها الملائكة وهي الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها : « **إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** » . ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أماً لمن يولد من غير نطفة آدمية . وكان ذلك لكي تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما حف بها من أحوال القرائن التي تقطع ريب المرتاب ، وألسنة كل أفاك ، وتنير السبيل أمام المؤمنين اذ أن ولادته من غير أب من أم كانت حياتها كلها للنسك والعبادة . والعكوف على التقوى . وتحت ظل نبي من أنبياء الله تعالى لم تزن بريبة قط - يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى في هذا الكون ، ولا يجعل شيئاً يقف أمام مريد الهداية من تظنن بالأم أو ريبة فيها ، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفي هذه الريبة ، وتبعدها عن موطن الشبهة .

الحمـــل بالمسيـح وولادتـــه :

٧- حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام ، وهو

الأمر الذي اجتباها الله له ، واختارها لأجله ، ولقد فوجئت به ، اذ لم تكن به عليمة . فبينما هي قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، أرسل الله اليها ملكاً تمثل لها بشراً سوياً « **قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً . قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا . قالت أنى يكون لي غلام . ولم يمسسني بشر . ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك . هو علي هين . ولنجعله آية للناس . ورحمة منا وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** » . حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب ، ثم ولدته . ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل . فلم يرد في الصحاح آثار تبين تلك المدة ، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا اذن إلا أن نفرض أن مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين الناس . وهي مدة تسعة أشهر هلالية .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم ، سواء في ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ، ومن لا يعرف ، لانها فاجأتهم بأمر غريب . وهي المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه عند المفاجأة تذهب الرؤية ، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضي والحاضر ، وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر عادي لا مجال للريب فيه عادة ، لكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة . فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ، ويأتي على قواعده ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذي لا يأتيه الريب ، ليعيد الى ذاكرتهم ما عرفوه في نسكها وعبادتها ، ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهد بالولادة ، أشارة اليه « **قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال إني عبد الله آتاني الكتاب . وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت . وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتي .**

ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

٨- نطق السيد المسيح في المهد ، ليكون كلامه اعلاماً صريحاً ببراءة أمه وأنه لم يكن إلا عبد الله ، ولد من غير أب . ويروي ابن كثير : « عن ابن عباس ان عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً ، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه ، وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى : « **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** » ، ولم يذكر في الآثار الصحاح عن النبي عليه الصلاة والسلام حال عيسى عليه السلام في مرباه ونشأته ، وكيف كان منه مما يكون ارهاصاً بنبوته ، فليس لنا إلا أن نقول انه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة في بني اسرائيل ، ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه وهو غلام ، ما يدل على روحانيته ، وما يدعو اليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة ، وغلبت عليهم نزعاتهم ، والاتجاه اليها .

الحكمة في كون المسيح ولد من غير أب :

٩- لابد من أن نشير هنا قبل أن ننتقل الى بعثته عليه السلام الى السبب الذي من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب . فانه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته ، وقد أشار اليها سبحانه في قوله تعالت كلماته : « **ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً** » .

وانا نتلمس تلك الآية الدالة في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، فنجد أنه يبدو أمام انظارنا أمران جليان : احدهما . ان ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنه

الفاعل المختار المريد ، وأنه سبحانه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه الله والذي خلقه ، فالأسباب الجارية لا تقيد ارادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها ، فان الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته ، كما يصدر الشيء عن علته ، والمسبب عن سببه ، من غير أن يكون للعلة أرادة في معلولها ، بل كانت بفعله سبحانه وبارادته التي لا يقيدها شيء مهما يكن شأنه ، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب اعلان لهذه الارادة الأزلية ، بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفي عصر ساده نوع من الفلسفة ، أساسها ان خلق الكون كان من مصدره الأول ، كالعلة عن معلولها ، فكان عيسى آية الله على انه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية ، وأن العالم كله بارادته ، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول : « **تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً** » .

الأمر الثاني : أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب اعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها ، حتى لقد زعموا أن الانسان جسم لا روح فيه ، وأنه ليس الا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود انهم كانوا لا يعرفون الانسان إلا جسماً عضوياً ، ولا يقرون أنه جسم وروح ، فقد قال رينان في سبب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية : « لو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين : احدهما الروح ، والآخر الجسد ، وانه تعذبت الروح في هذه الحياة لأنها تستريح في الحياة الثانية ، لسرى عنه شيء كثير من عذاب النفس ، واضطراب الفكر ، بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله » .

يقرر رينان في هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان أن الانسان

جسم وروح ، ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم ، فقد جاء فيها : « لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه » . اذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم ، فلما جاء عيسى من غير أب ، وكان ايجاده بروح من خلق الله ، كما قال تعالى : « **والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين** » كان ذلك الايجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم ، فكان الانسان من غير بذرة الانسان وجرثومته . كان ذلك اعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها ، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الانسان إلا أنه جسم لا روح فيه ، وهذه آية الله في عيسى وأمه عليهما السلام .

بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته :

١٠– بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد في القرآن الكريم ، ولا في الآثار الصحاح بيان السن التي بعث عند بلوغها عليه السلام . ولكن ورد في بعض الآثار أنه بعث في سن الثلاثين ، وهي السن التي تذكر الأناجيل المعتبرة عند النصارى أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث في هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح ، وهجر الملاذ التي استغرقت النفوس في تلك الأيام ، واستولت عليها ، ويبشر بعالم الآخرة ، ولقد أيده الله بمعجزات ، وان ولادته نفسها معجزة ، كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني ، فقد قال رحمه الله في ذلك : « كانت له آيات ظاهرة ، وبينات زاهرة ، مثل احياء الموتى وابراء الأكمة والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه ، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سابق » .

ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم تتلخص في خمسة أمور ، جاء ذكر أربعة منها في سورة المائدة في قوله تعالى : « **اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلاً ، واذ علمتك الكتاب والحكمة ، والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذني ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ، واذ تخرج الموتى بإذني** » .. الى قوله تعالت كلماته : « **اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء : قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير الرازقين ، قال الله اني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فاني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين** » .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات :

الأولى : أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً باذن الله ، أي ان الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيراً من الطين ، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى ، ولكن جرى الخلق على يد عيسى ، وينفخ من روحه عليه السلام باذن الله تعالى .

الثانية : احياؤه عليه السلام الموتى باذن الله جلت قدرته ، والمحيي في الحقيقة هو الله العلي القدير ، ولكن أجرى الاحياء على يد المسيح عليه السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته ، ودليل رسالته .

الثالثة : ابراؤه عليه السلام الأكمه والأبرص ، وهما مرضان تعذر على الطب قديمه وحديثه العثور على دواء لهما ، والتمكن من أسباب الشفاء

منهما ، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما ، وبرىء المريضان برقيته ، فكان ذلك دليلاً قائماً على رسالته عليه السلام .

الرابعة : انزال المائدة من السماء بطلب الحواريين ، لتطمئن قلوبهم ، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهناك **خامسة** ذكرت في سورة آل عمران ، وهي انباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسه ، ولم يعاينها ، فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وقد ذكر الله تعالى في قوله تعالى حاكياً عنه : « **وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين** » .

الحكمــة من كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع :

١١- هذه معجزات عيسى عليه السلام ، وهنا يتساءل القارىء : لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟ يجيب عن ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية بقوله : « كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزاته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي اليه . وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله ، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعاً ، ولم يتلعثموا : وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون اليها ، وأنى لحكيم ابراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق الى أن يقيم الميت من قبره ، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين بعث في

زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . فلفظه معجزة تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ، ولا في الاستقبال ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، وما ذلك الا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ما نـراه حكمـة صحيحـة :

١٢- من هذا الكلام يستفاد أن معجزة المسيح كانت من نوع ابراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم واحياء الموتى ، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعي وكانوا فلاسفة في ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ، ليكون عجزهم حجة عليهم ، وعلى غيرهم ممن هم دونهم في الطب ، ولكن رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسي يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعي فيقول : « كانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم ، فان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ ، وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط أبي الطب موضوعه العلة المقدسة يعني الهستيريا ، وفيه وصف هذه العلة ، وذكر دواءها ، إلا أن اليهود في فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب ، وكان في اليهودية في ذلك الزمان كثيرون من المجانين ، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية .

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم اذن بالطب ، أو الطب الطبيعي على رأي ذلك الفيلسوف المؤرخ .

وفي الحق ان الذي نراه تعليلاً مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح

عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لأنهم اطباء ، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء ، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم انكار الروح في أقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة ، مصدق لما يأتي به الرسول وهي في الوقت ذاته اعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها ، فهذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ، فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد أكله البلى ، وأخذت اشلاؤه في التحلل ، وأوشكت أن تصير رميماً ، أو صارت . يناديه المسيح عليه السلام ، فاذا هو حي يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذي غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه بالحياة ، وهكذا . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته ، وتناسب أخص رسالته ، وهو الدعوة الى تربية الروح ، والايمان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة أخرى يجازي فيها المحسن باحسانه . والمسيء باساءته ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . وهل ترى أن معجزة احياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار في انكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر في جحوده . وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الايمان باليوم الآخر . ان لم يكن بالقول . فبالعمل . فكان احياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الايمان حملاً . ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

تلقي اليهود لدعوته :

١٣- بعث عيسى عليه السلام بتلك البينات ، وأيد رسالته بتلك المعجزات وانها باهرة تخرس الألسنة ، وتقطع الطريق على منكري

رسالته . لو كان الدليل وحده هو الذي يهدي النفوس الضالة ، والقلوب الشاردة ، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب . قساة القلوب فكانت مهمته شاقة ، اذ حاول هدايتهم ، لأن منهم من علم الديانة رسوماً وتقاليد يتجهون الى الأشكال والمظاهر منها . دون الاتجاه الى لبها وغايتها . حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير في يوم السبت زاعماً أنه داخل في عموم النهي عن العمل فيه ، فاذا جاء المسيح داعياً الى أن ينظروا الى اصلاح القلب ، بدل الأخذ بالمظاهر والأشكال فانه لا شك يصدم هؤلاء فيما يألفون وفيما وجدوا عليه سابقيهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة ، واستغرقتهم ، واستولت على أهوائهم ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهياكل عندهم ، وقد فاتهم العمل على كسب المال من أبوابه الدنيوية – يجمعون المال من نذور الهياكل . والقرابين التي يتقرب بها الناس . ويحرصون على ذلك أشد الحرص ، فكانوا يأخذون القرابين من أشد الناس حاجة وأفقرهم ، فجاء المسيح وندد بهذا .

ولقد اتخذ بنو اسرائيل من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده . وزعمهم أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها أحد – اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى ارستقراطية دينية ؟ فزعموا أن لهم المكانة السامية ، ولغيرهم المنزل الدون ، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية ، وآمنوا برسالة موسى ، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة ، وكان الاسرائيليون يعاملون آحادها ، كأنهم المنبوذون ، فلما جاء عيسى عليه السلام ، وسوى بين بني البشر في دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة .

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة

العالية دون الناس . فجاء المسيح وجعل الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله .

مناوأة اليهود له :

١٤- لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح ، وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به ، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته ، فلما أعيتهم الحيلة ، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه ، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله - أخذوا يكيدون له ، ويوسوسون للحكام بشأنه ، ويحرضون الرومان عليه ، ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون الى المسائل الدينية ، والخلافات المذهبية بين اليهود ، بل تركوا هذه الأمور لهم يسوونها فيما بينهم ، واليهود يريدون أن يغروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن ، فبثوا حوله العيون يرصدونه ، ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام ، عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلون بها للحاكم الروماني ، فلم يجدوا ، لأن المسيح ما كان يدعو إلا الى اصلاح الجانب النفسي الخلقي ، ولم يكن قد اتجه الى اصلاح الحكومة بعد ، ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه ، وانتهى الأمر الى أن تمكنوا من حمل الحاكم الروماني على أن يصدر الأمر بالقبض عليه ، والحكم عليه بالاعدام صلباً .

نهاية المسيح في الدنيا :

١٥- وهنا نجد القرآن الكريم يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته ، بل نجاه الله من أيديهم : « **فما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم** » ، وبعض الآثار تقول ان الله القى شبهه على يهوذا ، ويهوذا هنا هو يهوذا الأسخريوطي الذي تقول الأناجيل عنه انه هو الذي دس عليه ، ليرشد القابضين اليه ، اذ كانوا لا يعرفونه ، وقد كان أحد تلاميذه المختارين في زعمهم .

ولقد وافق هذا انجيل برنابا موافقة تامة ، ففيه : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع - سمع يسوع دنو جم غفير ، فلذلك انسحب الى البيت خائفاً ، وكان الأحد عشر نياماً ، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأدرين[1] سفراءه ان يأخذوا يسوع من العالم فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فجعلوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله الى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التي أصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياماً ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه ، فصار شبيهاً بيسوع حتى اننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن استيقظ أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا ، وأجبنا أنت يا سيدي معلمنا ، أنسيتنا الآن .. الخ » .

والأناجيل المعتبرة عند المسيحيين لم تختلف في شيء كاختلافهم في قصة الصلب ، فلكل رواية بشأنها .

المسيــــح بعــد نجاتــه :

١٦- لم يصلب المسيح بنص القرآن ، ولكن شبه على القوم ، لقوله تعالى : « **وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم** » وقوله تعالى : « **وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه** » واذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب ، فما هي حاله بعد ذلك ؟ اختلف في هذا الشأن مفسرو القرآن ، فجلهم على أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه اليه ، وأخذوا بظاهر قوله تعالى في مقابل القتل ، بل رفعه الله اليه ، وببعض آثار قد وردت في ذلك ، وفريق آخر من المفسرين ، وهم الأقل عدداً ، قالوا : انه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه ، ورفع روحه اليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، وأخذوا في ذلك بظاهر قوله

(١) يريد اسرافيل . وعزرائيـــل .

تعالى : « **اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامه** » ومن ظاهر قوله تعالى : « **فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد** » ولكل من المختلفين وجهة هو موليها ، ولا نريد أن ندخل في تفصيل حجج الفريقين وترجيح احداهما على الأخرى ، فلذلك موضع ليس هذا مقامه .

١٧- ويزعم بعض الناس أن المسيح عليه السلام قد هاجر الى الهند ، وأنه عاش فيها ، حتى استوفى أجله ، ومات هناك ، وله قبر ، ولقد جاء في تفسير المنار ما نصه : « وجد في بلدة سري نكرا مقبرة فيها مقام عظيم يقال أنه مقام نبي جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ، ويسمى يوز آسف ويقال أن اسمه الأصلي عيسى ، وانه نبي من بني اسرائيل ، وانه ابن ملك ، وان هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم ، وتذكر في كتبهم ، وان دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا أن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله » هذا ما جاء في تفسير المنار ، وقد ذكر أن نقله عن غلام أحمد القدياني الهندي ، وهو راو يشك في صدقه .

هذا ، وان القرآن الكريم لم يبين ماذا كان من عيسى بين صلب الشبيه ووفاة عيسى أو رفعه على الخلاف في ذلك ، ولا الى أين ذهب ، وليس عندنا مصدر صحيح يعتمد عليه ، فلنترك المسألة ، ونكتفي باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصلب ، ولكن شبه لهم .

موازنة بين المسيح في القرآن الكريم والمسيح في المسيحية الحاضرة :

١٨- « **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه . اذا قضى أمراً فانما يقول له كن**

فيكون » وتلك ديانته كما جاء بها ، ودعا اليها ، فما الذي عرض لها من بعده ، وما الذي ادخل عليها بعد أن رفع الى ربه ؟.. أول ما أدخل على هذه الديانة هو ما يتعلق بشخص المسيح عليه السلام ، ولنسارع في بيان اعتقادهم في المسيح بايجاز ، ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التي مرت بتاريخ المسيحيين ، محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التي تتعلق بالمسيح ، ثم بقوانينهم الكنسية .

يعتقد المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة ، فأكل منها باغواء أبليس ، فاستحق هو وذريته العذاب ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسد كلمته ، وهي ابنه الأزلي تجسداً ظاهراً ، ورضي بموته على الصليب ، وهو غير مستحق لذلك ، لكي يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الانسان معاً ، وكان ذلك الابن ، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله اليها ملاكه جبريل ، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها ، وأن الروح القدس يحل فيها ، فتلد الكلمة الأزلية ، وتصير والدة الآله ، وقد ولد ببيت لحم ، اذ كان قد ذهب اليها يوسف النجار خطيب مريم الذي لم يتركها بعد أن حملت ، لرؤيا رآها في منامه تمنعه من ذلك ، لأن بيت لحم بلده ، فذهب اليها ومعه مريم ليقيد اسمه في الاحصاء العام الذي أمر به الرومان .

ولد المسيح في خان قد نزل فيه يوسف ومريم ، ولفقرهما لم يجدا مأوى لهما في الخان سوى مكان الدواب . ولقد قمطته وأضجعته في مذود البقر .

وفي ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم

في الحقول المجاورة لبيت لحم ، فرأوا بغتة جمهوراً من الملائكة مسبحين قائلين « المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » فترك الرعاة القطعان ، وذهبوا الى المكان الذي دلهم عليه الملائكة ، فرأوا الطفل في المذود ، وعادوا وهم يمجدون الله ، ويسبحونه على كل ما سمعوا ورأوا . كما قيل لهم .

وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته ، وسمي يسوع ، أي المخلص في زعمهم كما سماه الملاك عند التبشير به .

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم ، قالوا انه لاح لهم في السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من علمهم وما عندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد هو ملك اليهود المنبأ به فعزموا على الرحيل اليه ، ليسجدوا له ، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر ، وكانوا في مسيرهم يسيرون والنجم الذي رأوه يهديهم الى الطريق هم ومن معهم من خدم . حتى جاءوا الى المدينة ، وسألوا عن مكان الملك المولود ، فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم اليه ، واستطلع طلعهم ، وتعرف أمرهم فقصوا عليه قصصهم ، وما ابتعثهم الى الضرب في الأرض ، والمجيء الى أورشليم ، فسرى الى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد ، ثم دعا اليه كهنة اليهود وكتبتهم ، وسألهم أين يولد المسيح . فقالوا : في بيت لحم اليهودية حسب النبوءات فقال للمجوس . اذهبوا الى بيت لحم ، ومتى وجدتم الصبي فأخبروني لأسجد له ، قال ذلك ، وأخفى في نفسه أمراً لم يبده ، فذهبوا والنجم يتقدمهم ، ووجدوا الصبي يسوع وأمه ، فسجدوا له ، وقدموا هداياهم ، وفي هذا الوقت ظهر ملاك الرب في الحلم ليوسف ، وقال له قم وخذ الصبي وأمه ، وأهرب الى مصر ، لأن هيرودس يطلب الصبي ليقتله ، ففعل كما أمر ، وخرجت الأسرة المقدسة الى مصر وسافر المجوس

الى بلادهم من غير ان يعرجوا على هيرودس لأنهم نهوا عن العودة اليه بوحي أوحى اليهم في حلم ، فأخذه الغيظ ، واندفع فأمر بقتل جميع اطفال بيت لحم والبلاد التي تجاوره ممن لا تتجاوز سنه سنتين . زاعماً أن يسوع لابد أن يكون أحدهم .

رحلت الأسرة المقدسة الى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق ، كما يعتقدون ، وبعد أن قاموا بضعة أشهر واعتزموا الرحيل ، لأن ملك الرب ظهر ليوسف في الحلم ، وقال له : قم وخذ الصبي وأمه وعد الى اليهودية . لأن هيرودس الذي كان يطلب نفس الصبي قد مات ، فقاموا واتجهوا الى فلسطين ، ومروا في طريقهم بالمطرية ، واستظلوا بشجرة هناك تسمى شجرة العذراء . وفي بعض الآثار أنه لما دخلت مريم وابنها ويوسف أرض مصر ، انكفأت أصنامها وتحطمت ، وكان ذلك اتماماً لنبوة أشعياء القائلة ، « هو ذا الرب راكب على سحابة وقادم الى مصر ، فترتجف أوثان مصر من وجهه . ويذوب قلب مصر داخلها » سفر أشعياء — ١٩ : ١ .

ولما عادوا الى فلسطين أقاموا في الناصرة . ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمد في نهر الأردن ، عمده يوحنا المعمدان ، ثم صام أربعين يوماً ، ولما شرع في التبشير ظهر له الشيطان يجربه ، وقال له : أعطيك هذه الدنيا أن خررت وسجدت لي : فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان. ثم تركه أبليس ، واذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه ، وبعد هذه التجربة صار في طريق التبشير . فلازمه حواريوه الاثنا عشر ، واختار معهم سبعين أرسلهم مثنى مثنى الى قرى اليهود والجليل للتبشير . ثم أقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتي بالمعجزات المثبتة لألوهيته في زعمهم ، يشفي المريض ويفتح أعين العميان ، ويخرج الأرواح النجسة .. وينهر الرياح اذا ثارت ، والبحر اذا اصطخب بالأذى ، وقذف بالزبد ، فيهدآن .

ولما رأى اليهود أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم تشاوروا لكي يصطادوه ، وتآمروا عليه ، وشكوه ظلماً ، وكذبوا عليه ، ثم أمسكوا به وأسلموه الى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان ، فقضى عليه بالموت صلباً ، فصلب في زعمهم ودفن . وبعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام قام في الفصح ، ومكث أربعين يوماً أرتفع بعدها الى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانته ، اذ قال لهم اذهبوا الى العالم ، وكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ، وعمدهم باسم الآب والابن وروح القدس » .

المسيحية بعد المسيح

ما نزل بالمسيحيين من اضطهاد :

١٩- هذا هو المسيح كما جاء في كتبهم وتعاليمهم ، ولا نريد أن نخوض في بيان خلافاتهم حوله ، ولا بيان اختلافهم في تفسير هذه العقيدة ، ولا في تفصيل مجملها قبل أن نبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسيح ، ولكننا سارعنا الى بيان اعتقادهم الذي استقروا عليه في المسيح ليوازن القارىء بين ما جاء في القرآن الكريم ، وما جاء في أناجيلهم وتعاليمهم .

ونعود بعد ذلك الى ما يوجبه البحث العلمي ، وهو تتبع العقيدة في نموها ، وفي استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها ، وتمهيداً لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده ، لكي يستبين القارىء مقدار قوة السند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث ، وليعرف الفلسفة التي عاصرت المسيحية ومقدار اتصالهما .

اتفقت المصادر شرقية وغربية . دينية وغير دينية : على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث ، جعلتهم يستخفون بديانتهم ، ويفرون بها أحياناً ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحياناً أخرى ، وهم في كلتا الحالين لا شوكة لهم ، ولا قوة تحميهم ، وتحمي ديانتهم وكتبهم ، وانه في وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التي يؤمنون بها ، ودونت رسائلهم !! .

وأول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان في عهد المسيح ، وانتهى بالخاتمة التي بيناها ، ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء . فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذي عاصر المسيح ، كانا شديدين على تلاميذه ، وقتلا منهم قتلاً ذريعاً ، وفي زمن ثانيهما دون متى

أنجيله بالعبرية . وترجمه يوحنا صاحب الانجيل الى اليونانية ، على رواية ابن البطريق كما سنتبين ، ولم يكن الاضطهاد في عهد هذين القيصرين من الرومان فقط ، بل كان من اليهود أيضاً ، وأذاهم أمكن ، وتنقيبهم عن العقيدة أدخل ، لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشروهم ، فهم بداخلهم أعرف .

وأشد ما نزل من أذى كان في عهد نيرون (سنة ٦٤ م) وتراجان (سنة ١٠٦م)وديسيون (٢٤٩ - ٢٥١ م) ودقلديانوس (سنة ٢٨٠م)، فنيرون هاج الشر عليهم ، وأنزل البلاء والعذاب بهم ، واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما ، فأخذهم بجريرتها . وكانت السنوات الأربع الأخيرة عذاباً أليماً لهم . فقد تفنن هو أشياعه في هذا العذاب ، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم في جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم ، وصلبوا بعضهم ، وألبسوا بعضهم ثياباً مطلية بالقار ، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها ، وكان هو نفسه يسير في ضوء تلك المشاعل الانسانية .

وفي عصر نيرون هذا دون انجيل مرقس سنة ٦١ م على رواية ، وكان بمصر وقد كتبه عند بطرس وهو برومة وكتب أيضاً لوقا إنجيله في عهد هذا القيصر ، وفي ابتداء هذا الانجيل ينص على أنه يراسل به تاوفيلس ، ليؤكد به صحة الكلام ، وتاوفيلس هذا رجل من عظماء الروم وأشرافهم ، وفي عصر هذا القيصر أو بعده دون يوحنا إنجيله .

وفي عهد تراجان نزلت بهم آلام ، لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة في الخفاء وهرباً من الاضطهاد ، وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية ، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك ، ولأنهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر .

جاء في كتاب تاريخ الحضارة « لقد كتب بلين - وكان والياً في آسيا

— الى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان بها المسيحيون ، قال : « جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية وهو اني اسألهم اذا كانوا مسيحيين فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثاً مهدداً بالقتل ، فان أصروا أنفذت عقوبة الاعدام فيهم ، مقتنعاً بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد ، يستحقان هذه العقوبة ، وقد وجهت التهمة الى كثيرين بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها . فأنكروا أنهم نصارى . وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم ، وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمداً مع تماثيل الأرباب ، بل انهم شتموا المسيح ، ويقال أن من الصعب اكراه النصارى الحقيقيين ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى ، ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم في أنهم اجتمعوا في بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على أنه رب ، وعلى انشاد الأناشيد اكراماً له ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم ، بل على الا يسرقوا ، ولا يقتلوا ، ولا يزنوا ، وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضروري لمعرفة الحقيقة أن أعذب امرأتين ذكروا أنهما خادمتا الكنيسة ، بيد أني لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها » .

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى في عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب ، وتنقيب عن القلب وخبيئة النفس .

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان ، بل استمر ، وان أخذت الرأفة بعض القياصرة ، خلف من بعده خلف ينزلون عذاباً مراً يزيل أثر كل رحمة سابقة كانت نسبية حتى جاء ديسيوس فأنزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان ، ولنترك القلم لبطريرك الاسكندرية ، يصف بعض ما عاين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه ، فهو يقول : « لم نكد نتنفس الصعداء ، حتى حلق بنا الخوف ، وخفنا

الخطر ، عندما بدل ذلك الملك الذي كان أرق جانباً ، وأقل شراً من غيره ، وجاء مكانه ملك آخر ، ربما لا يجلس على كرسي المملكة حتى يوجه انظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا . وقد تحقق حدسنا ، عندما أصدر أمراً شديد الوطأة ، فعم الخوف الجميع ، وفر بعضهم ، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة ، مهما يكن ذكاؤه ، وكل مسيحي يرشد عنه يؤتي به على عجل ويقدم الى هيكل الأوثان ، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة . بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب ... ومن ضعاف الايمان من أنكر مسيحيته . واقتدى به البعض ، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار ، أو من زج به في غيابات السجون .

وهكذا يقص ذلك القسيس ما نزل بهم مما انتهى به الأمر الى فراره هو ، وقد كتب يعتذر[١] عن ذلك الى بعض من أبلوا بلاء حسناً ، ولم يلوذوا بالفرار .

ولم يكن البلاء مقصوراً على مصر ، بل كان يتتبع المسيحيين في الدولة الرومانية حيثما ثقفوا ، وأينما كانوا .

ولى بعد ديسيوس من أوقع البلاء وأنزله بالمسيحيين ، ولكن كان أشد هؤلاء وأبلغهم أذى وأنكاهم بطشاً – دقلديانوس الذي جاء اليهم ، بعد أن خف العذاب عنهم قليلاً ، وقد رجوا فيه خيراً ، وأملوا منه أن يكون عوناً ، لأن مدير خاصته مسيحي ، ولكنه كان أشد من غيره على المسيحيين ، وخصوصاً المصريين ، وذلك لأن المصريين رأوا أمماً تحللت من حكم الرومان ، وفكوا أغلاله ، فاقتدوا بهم ، ونزعوا الى السير في طريق الحرية والاستقلال ، وساروا فيه ، وعقدوا الامرة لواحد منهم ، فجاء

(١) راجع في هذا الكتاب تاريخ الأمة القبطية ، الجزء الأول ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

دقلديانوس الى مصر ، وأنزل بها البلاء ، وأزال استقلالها ، وأعاد فتحها ، وكانت كثرتها في ذلك الابان مسيحية ، وقد أمر بهدم الكنائس ، واحراق الكتب ، وأصدر أمراً بالقبض على الاساقفة والرعاة ، وزجهم في غيابات السجن ، وقهر المسيحيين وحملهم على انكار دينهم ، وقد استشهد في هذا الوقت عدد كبير من الأقباط تجاوزت عدتهم أربعين ومائة ألف ، وعدهم بعض المؤرخين ثلاثمائة ألف ، ولكثرة ما استشهد من شهداء وما نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثاً ذا خطر في شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم ، وذلك في سنة ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين ، يمنا وبركة على المسيحيين ، لا على المسيحية كما سنبين .

أثـر الاضطهـادات في الديانـة :

٢٠- هذه هي الاضطهادات التي قارنت المسيحية في نشأتها وفي تكوينها وليداً وفي تدرجها ، وفي عصر تدوينها ورواية كتبها ، وهي مع أسباب أخرى جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب ، وجعلت بعض علماء المسيحيين انفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب في الأناجيل بأنها دونت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى ، بل ان مناظريهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سبباً في فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة . يقول الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه اظهار الحق : « طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه ، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم ، فقال : ان سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين الى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة ، وتفحصنا كتب الاسناد لهم ، فما رأينا فيها شيئاً غير الظن ، يقولون بالظن ، ويتمسكون ببعض القرائن . وقد قلت ان الظن في هذا الباب لا يغني شيئاً ، فما داموا لم

يأتوا بدليل شاف ، وسند متصل فمجرد المنع يكفينا . وايراد الدليل في ذمتهم لا في ذمتنا » . وفي الحق ان تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به في شئونهم الدينية – وخاصة ما كان متصلاً ببيان الشريعة يقومون به سراً لا جهراً ، وفي خفية من العيون المتربصة ، والأعداء المترقبين ، والسرية يحدث في ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن الى ما يحكي عما يحدث فيها ، فيتظنن في كل ما يروى عنها ، ولا مانع من أن يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها ، وينقل عن اشخاصهم ما لم يقولوه ، ويتسامع الجمهور أموراً ما حدثت في تلك الاجتماعات ، ولا قالها حاضروها ، فاذا جرى الشك والريب فيما دون من كتب المسيحية التي فقدت سندها بسبب هذا الاضطهاد ، والتي كتبت في ظلمة السرية ، يكون قد وقع حيث وجدت دواعيه ، وقامت شواهده .

الفلسفة الرومانية والمسيحية :

٢١– ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم ، ومنهم من يظهر الوثنية ويبطن المسيحية ، ومنهم من دخل النصرانية وفي رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع منه ولم تزايله ، وان زايلها بعقله المدرك فعقله الباطن ما زال مستقراً لها ومكمناً تكمن فيه ، وهؤلاء لا شك أثر تفكيرهم في المسيحية التي لم يكن لها قوة تحميها ولا شكيمة تعقل النفوس الى حظيرتها .

وان التاريخ يروي لنا أنه في القرن الثاني ، والثالث ، والرابع الميلادي قد دخل الرومان والمصريون أفواجاً في المسيحية . فمن حق العلم أن نحكي ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار ، وما كان يسود تفكيرها من منازع عقلية ودينية ، ولا نعتمد في ذلك إلا على ما أثبته تاريخ العلم والفلسفة ، وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكي التاريخ أن مدينة الرومان لم تكن متناسقة تناسقاً اجتماعياً ، فلم

يكن توزيع الثروة فيها توزيعاً يتحقق معه العدل الاجتماعي ، فبينما ترى ترفاً ورخاء لمن أفاءت عليهم الدولة بالفيء والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ، ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به في حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والسخط على الحياة ، والتململ بها ، والناس لا يشقون لآلامهم وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التي امتنعت عليهم ، وكذلك كانت آلام سواد الرومان ، ولولا ايمان بحياة مستقبلة ، يستمتعون فيها بما حرموا منه في هذه الحياة ، لضاقت الصدور بما يجلجل في القلوب ، ولانفجرت في ثورة اجتماعية ، لكن توجهت هذه النفوس الى الايمان بعالم علوي ، واعترف الانسان بعجزه التام عن معرفة نفسه واسعادها ، اذا اعتمد على تفكيره فقط ، لذلك رجعوا الى الدين .

وفي هذا الوقت أراد الفلاسفة أن يحلوا فلسفتهم محل الأديان ، اذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها ، ولم يعد لها سلطان في تصريف سلوك الانسان ، وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة ، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان ، كلاهما فية قوة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم في حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى باليوم الآخر ، وملاذ الى حياة روحية ، والفلسفة – بما لها من سلطان العقل – لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها ، حينئذ التحمت الفلسفة بالشعور الديني ، أو التقت الفلسفة والدين ، ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاماً ، بل كان محبة وسلاماً ، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما ، لا داعية افتراق .

قال فندلبند في ذلك : « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بالشعور الديني اللجوج فكرة في العالم تقنعه . فأوجدت نظماً دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلة وكثرة » .

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادىء الفلسفية ، فما هذه الأديان المتضادة التي ألفت بينها الفلسفة ، وجعلت من نغماتها المختلفة نغمة واحدة مؤتلفة ؟ .

ان التاريخ يقص علينا أن الأديان التي كانت في بلاد الرومان ثلاثة : الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة ، فهل عملت الفلسفة على ايجاد ديانة تجمع بين المسيحية واليهودية ، وفيها وثنية ؟ وهل المسيحية التي تؤمن بالتوراة التي عند اليهود على اختلاف هين ، وتؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وتقديس الصليب ، هي النظام الديني الجامع بين الأديان الثلاثة !!! لنترك ذلك الآن . وقد وضعنا أمام القارىء المصباح الذي يرى به الطريق .

الأفلاطونية الحديثة وأثرها في النصرانية :

٢٢– ولنتجاوز رومة الرومان ولنعبر البحر الأبيض ، ولنيمم شواطئه الجنوبية ، فهنالك تجد مدينة الاسكندرية ومدرستها ، وفلسفتها التي كانت تشع على العالم كله بنور العلم ، وقد آوى اليها فلاسفة اليونان ، وتابعوا الفلسفة اليونانية ، والتي نراها تتجه اتجاهاً واضحاً الى النواحي الدينية ، والبحث في منشىء الكون .

كان شيخ هذه المدرسة أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ، اعتنق في صدر حياته الديانة المسيحية . ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين ، وجاء من بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ وقد تعلم في مدرسة

الاسكندرية أولاً ، ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية ، واطلع على تعاليم بوذا وديانته ، وبراهمة الهند وديانتهم . وعرف آراء البوذيين في بوذا ، والبراهمة في كرشنة ، وقد عاد بعد ذلك الى الاسكندرية ، وأخذ يلقي بآرائه على تلاميذه ، وجلها يتجه الى تعرف ما وراء الطبيعة ، ومنشيء الكون .

ويلخص اعتقاده في منشيء الكون في ثلاثة أمور :

(**أولها**) أن الكون قد صدر عن منشيء ازلي دائم لا تدركه الأبصار ، ولا تحده الأفكار ، ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام .

(**ثانيها**) أن جميع الأرواح شعب لروح واحد وتتصل بالمنشيء الأول بواسطة العقل .

(**ثالثها**) أن العالم في تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ، وهو تحت سلطانها ، فالله منشيء الأشياء وهو مصدر كل شيء ، واليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث . فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكراً كفكرنا ... ولا إرادة كارادتنا ولا وصف له ، إلا أنه واجب الوجود ، يتصف بكل كمال يليق به ، يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج هو الى موجود ، وأول شيء صدر عن هذا المنشيء في نظر أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ، ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء .

٢٣– هذه هي فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية عندما أريد تحويلها ، وترى أن فلسفة الرومان ترمي الى ايجاد ألفة بين الوثنية واليهودية ومسيحية المسيح عليه السلام ، كما ترى أن فلسفة الاسكندرية ترجع العالم في تكوينه وتدبيره الى ثلاثة عناصر أو الى ثالوث مقدس : المنشيء

الأول ، والعقل الذي تولد منه كما يتولد الولد من أبيه ، والروح الذي يتصل بكل حي ومنه الحياة . فاذا عبرنا عن المنشيء الأول بالآب ، وعن العقل المتولد عنه بالابن ، وعن الروح بروح القدس ، كما هو ثالوث النصارى الذي أخذ ببعضه مجمع نيقية ، وبكله المجامع التي جاءت بعده ، لما خرجنا في التسمية عن الصواب ، وما كان فيها أي تسامح ، فذلك الثالوث في معناه هو ثالوث النصارى ، واذا لم يختلف المسمى ، فلماذا يختلف الاسم ؟ .

وهنا يرد على النفس سؤال : أيهما أستقر ، وأيهما كان الينبوع ؟ أأخذت الأفلاطونية الحديثة من النصرانية ، أم النصرانية الحاضرة هي التي أخذت عن الفلسفة ؟ أن الجواب عن هذا يقتضي تعرف السابق منهما ، فالسابق بلا ريب أستاذ اللاحق ، والزمن هو الذي يحكم ويفصل ، وسنجد فيما يلي من البحث أن مجمع نيقية هو الذي سار في تقرير هذا الثالوث ، ووضع الأساس لمن بعده ، أو بعبارة أدق قرر ألوهية الابن ، وأن جوهره هو جوهر الآب ، وقد جاء في قراره « ان الجامعة المقدسة ، والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وانه لم يوجد قبل أن يولد ، وانه وجد من لا شيء ، أو من يقول ان الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول أنه قابل للتغيير[1] » .

---

(١) اطلع زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين سابقاً على هذا الاستنباط التاريخي فقال : انه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين ، ثم ترجمه ، وتفضل فأرسل الينا نص الترجمة وها هي ذي ، ننشرها مع بحثنا شاكرين له رحمه الله فضل تعاونه :

التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الاغريقية

١- كانت المشكلة الفلسفية التي واجهت أولاً الاغريق هي : « ما مبدأ كل شيء ؟ » ، وباجتهاد الفلسفة في الاجابة عن هذا السؤال اجابة محدودة ومقنعة شيئاً فشيئاً كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التي تتابعت في تاريخ الفلسفة الاغريقية . هذه فلسفة بدأت طبيعية مع الفلاسفة الايونيين ، ثم أخذت فكرة التوحيد في الظهور على أيدي سقراط . وأفلاطون ، وأرسطو ، بحيث رأى هؤلاء أن

وهذا المجمع كان في سنة ٣٢٥ بعد الميلاد ، والمسيحيون قبله كانوا على اختلاف كبير جداً ، ويكفي الدلالة على هذا الاختلاف ان الذين حضروا المجمع نيف وأربعون بعد الألفين ، وهم على آراء مختلفة ، ولم يجمع على اختلاف كبير جداً ، ويكفي للدلالة على هذا الاختلاف أن الذين حضروا أنه تولد عن المنشيء من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة ، وأنه من جوهر أبيه ، كما يقولون لم تسد إلا بعد ذلك المجمع ، وسيأتي لذلك فضل بيان إن شاء الله تعالى ، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخراً عن أفلوطين لأن أفلوطين توفى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما

المبدأ الذي صدر عنه العالم هو الله الواحد الذي لم يتغير ، على غموض في تعيين هذه الصفات ونحوها مما يصح ان يتصف بها .

ولكن بمقدار تبين هذه المعارف والمعلومات عن الله كانت تكبر الصعوبة الأساسية التي اصطدمت بها المذاهب التي سبقت سقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج الكثير – أي العام – من الواحد ، والمتغير من الذي لا يتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيرورته روحياً ، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملاً ، تتسع الهوة التي تفصله عن العالم وكثرته وتصير أكبر عمقاً ، كما يصبح عسيراً فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه .

٢– اذا كان الله واحداً وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل في ذاته كثرة بأي وجه من الوجوه ؟ واذا كان كما له المطلق يقتضي عدم التغير ، كيف تفهم أنه في وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير . مع انه انتقل من حالة عدم العمل الى حالة العمل ؟ هنا تظهر عبقرية العقل الارى ! الواحد البريء من التغير لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة ، يجب اذن أن تتوسط بينهما وسائط أزلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقي .

٣– كان أفلاطون أول من أدرك تلك المشكلة وأول من أدرك هذا الحل الذي وجب على العقل الاغريقي فيما بعد – بعد انضاجه طويلاً – أن يجتمع نهائياً عليه . أعني عقيدة ثلاثة أقانيم أو عقيدة التثليث – ص ٧٠ – ٧١ .

٤– هذا المذهب أو هذه العقيدة التي تمثلها عقل أفلاطون ، وأن ادركها ادراكاً فيه نو ع غموض ليس إلا عقيدة التثليث المشهورة ، ومن السهل ادراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير ، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه خارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه ، أي تتضمنهما ذاته – صادرين عنه ، دونه في الكمال ، ويجعلانه ممكناً أن يصدر عن الله العالم الكبير المتغير ، أول هذين الوسيطين العقل ، وثانيهما الروح الآلهية – ص ٧٣ ، ٧٤ .

٥– وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الاغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل أنتج معها ديناً أيضاً . أعني المسيحية التي تشربت كثيراً من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الافلاطونية الحديثة (يريد فلسفة

علمت ، والتثليث لم يتكامل إلا في آخر القرن الرابع ، والمتقدم أستاذ المتأخر كما يرجح العقل ، وكما يوجبه الظن الذي لا يعد من الاثم .

ولقد قوى ذلك الظن عند بعض علماء أوربا ، حتى شك بعضهم في حياة المسيح وقالوا انه شخص خرافي لم يوجد ، أراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه ، ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة ، وتسود الكافة ، وقد تم لهم ما أرادوا ، ولكنا نحن المسلمين لا نقر ذلك كله ، لما فيه من انكار وجود المسيح الذي نؤمن به ، ونزل بخبره الوحي الأمين وان كنا نصدق لبه .

أفلاطون التي كانت المعين الأصلي للفلسفة الافلاطونية الحديثة) ولذا تجد بينهما (أي اللاهوت المسيحي والافلاطونية الحديثة) مشابهات كبيرة ، وان أفترقا أحياناً في بعض التفاصيل ، فانهما يرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة الاقانيم واحدة فيهما – ص ٩٣ .

٦– أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال ، والذي يحوي في وحدته كل الكمالات ، وهو الذي دعاه المسيحيون الآب . والثاني أو الابن هو الكلمة . والثالث هو دائماً الروح القدس – ص ٩٢ – ٩٤ .

وعلى أنه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحي عن الأفلاطونية الحديثة) ان الأقانيم الثلاثة ليست في نظر هذا المذهب متساوية في الجوهر والرتبة . بينما هي متساوية عند المسيحية . فالابن الذي يتولد من الآب لا يمكن أن يكون أدنى منه كمالاً . وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطراراً عنه غير الكامل . وهذا حط من رتبته . وكذلك الروح القدس مساو للآب والابن – ص ٤٩ .

كل هذه النقول من كتاب : « مقدمة (أو المدخل لدراسة) الفلسفة الإسلامية » تأليف المستشرق المعروف ليون جوتيه طبع باريس عام ١٩٢٣ .

مصادر المسيحية بعد عيسى

٢٤- الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل ، ورسائل الرسل ، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد القديم ، وتسمى الأناجيل ، ورسائل الرسل كتب العهد الجديد ، فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم في عصوره الأولى ، وأجياله القديمة ، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية ، وتاريخ نشأتهم ، وحكوماتهم وحوادثهم ، والنبوات السابقة منذ هبوط الانسان على هذه الأرض ، والبشارات بالنبيين اللاحقين ، وبالمسيح ، وفيها يجدون أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات ، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود ، ولنترك الكلام في التوراة وأسفارها فلذلك موضعه من الدراسة للديانة اليهودية ، بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند اليهود مرفوضة عند المسيحيين ، لعدم اعتقادهم بصحة الوحي فيها .

الأناجيـــــل :

٢٥- أما كتب العهد الجديد فهي التي تعنينا في هذا البحث ، ويهمنا أن نجلي أمرها ، ونعرف حقيقتها ، وأولها الأناجيل .

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا .

ومكان الأناجيل في النصرانية مكان القطب والعماد ، واذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوها به من أفكار هي شعار المسيحية ، فان هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية ، من وقت الحمل الى وقت صلبه في اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال ، ثم رفعه بعد أربعين ليلة ، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في

زعمهم ، والصلب والفداء ، أي أنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم بعد المسيح ومعناها .

وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس ، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها ، ولكن التاريخ يروي لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى ، قد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها ، فعند كل من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل ، ولأصحاب ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهو الصحيح في زعمهم ، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب الى تلامس ، والنصارى ينكرونه ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة ، وانجيل سرن تهس ، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي ، أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة – في اعتقادها – فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة ابان ذلك .

ولقد يذكر بعض المؤرخين انه لم توجد عبارة تشير الى وجود أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث ، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩ . ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦ ، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم ، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة ، بل أرادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها ، ورفض غيرها ، وتم لها ما أرادت فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها .

ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وأدوارها في التاريخ أن نعرف هذه الأناجيل التي أهملت ، وما كانت تشتمل عليه ، مما كان سبباً في رفضها ، وحمل الناس على تركها ، وخصوصاً أنها كانت رائجة ، ويأخذ

بها طوائف من المسيحيين ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها ، فان الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس في المسيح ، وكيف كان ، خصوصاً بين أولئك الذين قاربوا عصره ، وأدركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه ، ونهلوا من مناهلهم ، واذ ضن التاريخ بحفظ نسخ منها ، فقد كنا نود أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها ، وما كان من سبب رفضها ، وترينا حجة الرفض ، لتكون دليلاً منيراً لها على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ولم تغيرها ، ولكن ضن التاريخ علينا ، فطوى تلك الأناجيل ، وضنت الكنيسة فطوت تلك البيانات ، فلم يبق لنا إلا أن نكتفي من الدراسة بما بين ايدينا ، لعل فيه غناء ان أنعمناالنظر وأمعنا في الاستنباط ، وجعلنا لقضية العقل سلطاناً ، ومن بدهياته برهاناً .

الأناجيل لم يملها المسيح ولم تنزل عليه :

٢٦– وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحي أوحى اليه ، ولكنها كتبت من بعده – كما رأيت – وتشتمل على أخبار يحيى (يوحنا المعمدان) والمسيح ، وما كان منه ، وما أحاط بولادته من عجائب وغرائب ، وما كان يحدث منه من أمور خارقة للعادة ، ولا تحدث من سواه من البشر ، وما كان يحدث له من أحداث ، وما كان يجري بينه وبين اليهود ، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث وأمثال ومواعظ ، وفيها قليل من الشرائع التي تتعلق بالزواج والطلاق ، ثم أخبار المؤامرة عليه ، واتهامه والقبض عليه ، ومحاكمته ، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود ، أم أمام الرومان ، ثم فيها الحكم عليه بالموت صلباً ، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون ، وفيها أيضاً قيامته من قبره ، ومكوثه أربعين يوماً ، ثم رفعه الى السماء . وفي الجملة هي تشتمل على أخبار المسيح وصلواته ، وأقواله وعجائبه ، من بدايته الى نهايته في هذا العالم ، وهذا – كما قلنا – لب المسيحية ومعناها ، لأن

فيها النواة الأولى لألوهية المسيح ، وعقيدة النصارى فيه ، ولنتكلم على كل إنجيل من هذه الأناجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه ، وتعرف بمؤلفه ، ومكانته من المسيح .

إنجيـــل متـــى :

٢٧- وقد كتبه متى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، ويسميهم المسيحيون رسلاً ، وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب ، وكانوا يسمون في ذلك العهد عشارين ، ولقد كان جابياً للرومان في كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين ، وكان اليهود ينظرون للجباية نظر ازدراء ، لأنها تحمل صاحبها على الظلم ، أو على الأقل تحمله على العنف ، والعمل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التي تحكم البلاد بغير رضا أهلها ، ولكن السيد المسيح اختاره تلميذاً من تلاميذه كما جاء في إنجيله . ففي الاصحاح التاسع منه : « وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى انساناً جالساً عند مكان الجباية ، واسمه متى ، فقال له : اتبعني ، فقام وتبعه ، وبينما هو متكىء في البيت اذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا ، واتكئوا مع يسوع وتلاميذه .

فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ما هو ، اني أريد رحمة لا ذبيحة ، لأني لم آت لأدعو أبراراً ، بل خطاة الى التوبة » .

ولما صعد المسيح الى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية في بلاد كثيرة .

ومات في سنة ٧٠ ببلاد الحبشة على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة . وفي رواية أخرى أنه طعن برمح في سنة ٦٢ بالحبشة

بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعياً للمسيحية مبشراً بها ، فموطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هو الحبشة .

إنجيل متى كتب بالعبرية ولم يعرف إلا باليونانية وجهل المترجم :

٢٨- وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية ، كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية ، ولكن موضع الخلاف في تاريخ تدوينه ، ومن الذي ترجمه الى اليونانية ، فمن المتفق عليه عند أكثرهم أن متى كتب إنجيله بالعبرانية ، وذلك لأنه كتبه لليهود يبشر بالمسيحية بينهم ، وليقرأه مؤمنوهم بها ، قال جيروم : « ان متى كتب الإنجيل باللسان العبري في أرض يهودية للمؤمنين من اليهود » وقال غيره : « ان متى كتب الإنجيل باللسان العبري ، وهو الذي انفرد باستعمال هذا في تحرير العهد الجديد » .

وإذا انتقلنا الى تاريخ تدوين هذا الإنجيل وترجمته نرى ميدان الخلاف فسيحاً ، فنجد ابن البطريق يذكر انه دون في عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير أن يعين السنة التي كتب فيها .

ويذكر أن الذي ترجمه يوحنا ، فيقول في ذلك : « في عصر قلوديوس كتب متأوس (متى) إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس ، وفسره من العبرانية الى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل » .

وهنا نجده لم يعين السنة التي كتب فيها الإنجيل ، بل عين الملك الذي كتب في عهده ، وهذا الملك لم يكن هو الذي عاصر المسيح ، ولا الذي يليه . بل الذي عاصر المسيح وصلب – على زعمهم – في عهده طيباريوس ، وولى من بعده غابيوس ، وملك أربع سنين وثلاثة أشهر ، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك أربع عشرة سنة ، فيحتمل تدوين هذا الإنجيل أن يكون في آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح ، ويحتمل أن

يكون في أول أو آخر العشرة الخامسة أو أوائل السادسة . فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا ، وقال جرجس زوين اللبناني فيما ترجمه عن الفرنسية : « ان متى كتب بشارته في أورشليم في سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب اليه القديس أيرنيموس ، والسبب في ذلك على ما ذهب اليه القديس أبيفانيوس أنه كتبه إما أجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح ، أو أجابة لأمر الرسل ، ولم يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرانية على زعم أوسيبيوس في تاريخه ، وقد وافق أسيبيوس القديس أبرنيموس ، اذ أن بانتيوس قد ذهب ليكرز بالايمان المسيحي في الهند ، فوجد إنجيلاً لمتى الرسول مكتوباً بالعبرانية ، فجاء به الى الاسكندرية ، وبقي محفوظاً في مكتبة قيصرية الى أيامه ، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت ، وبعد فقدها ظهرت ترجمتها في اليونانية » أ.هـ. وفي هذا يعين الكاتب تاريخ السنة الذي دون فيها الإنجيل ، ولكن لا يعين المترجم . بل يذكر أنه غير معروف ، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه .

ويقول بالنسبة لتاريخ التدوين صاحب كتاب (مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين) : « ان متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب انجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا ، ومرقس ولوقا كتبا إنجيلهما قبل خراب أورشليم . ولكن لا يمكن الجزم في أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص ، لأنه ليس عندنا نص إلهي على ذلك » .

وقال صاحب ذخيرة الألباب : « ان القديس متى كتب إنجيله في السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ في فلسطين ، وهي العبرانية أو السيروكلدانية .. ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم الى اليونانية . ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذي لعبت به أيدي النساخ الأيونيين

ومسخته بحيث أضحى ذلك الأصل خاملاً ، بل فقيداً ، وذلك منذ القرن الحادي عشر » .

وقال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس ، مخالفاً جمهور المتقدمين في أنه كتب بالعبرانية أو السريانية : « ان هناك من يقول أنه كتب باليونانية ، ثم يرجح أنه ألف باليونانية مخالفاً بذلك أجماع مؤرخيهم . ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه : « ولابد أن يكون هذا الإنجيل قد كتب قبل خراب أورشليم » ويظه البعض « أن الانجيل الحالي كتب ما بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥ » . والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سده ، ولا يمكن ترجيح رواية ، ولا جعل تاريخ أولى من تاريخ بالاتباع ، ولذلك يقول هورن : « ألف الانجيل الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد » . ونقول نحن : « يجوز غير ذلك ، والجمهور على انه كتب بغير اليونانية ، ولكن لم يعرف غيرها ، ولم يعرف جمهرة المؤرخين من يكون المترجم ، وفي أي عصر ترجم ، وقد علمت أن ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذي ترجمه الى اليونانية ، ولكن لا نجد أحداً من المؤرخين أيده ، بل أن الكثيرين منهم يقولون : « انه لم يعرف المترجم » .

أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم :

٢٩- لا شك أن جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التي كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره ، وعلم بالدين واللغتين التي ترجم عنها والتي ترجم اليها ، كل هذا يؤدي الى فقد حلقات في البحث العلمي ، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التدوين ، وتاريخ الترجمة وملابساتها ، يمنعنه العلم من الاسترسال في التسامح ، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة اذا لم يعرف الأصل الذي ترجم ،

فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل ، أم فيها انحراف ، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها ، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو باشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته ، أم بروح المؤلف وغرضه ، ومرماه الكلي من الكلام . ولكن عز علينا العلم بالأصل ، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم ، وأنه ثبت ثقة أمين في النقل ، عالم لا يتزيد على العلماء ، فقيه في المسيحية حجة فيها ، عارف للغتين فاهم لهما ، مجيد في التعبير بهما ، فعندئذ كنا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته ، ونسد الخلة بتلك الرواية ، ونرأب الثلمة بتلك النظرة ، ولكن قد أمتنع هذا أيضاً ، فقال جمهرة علمائهم : ان المترجم لم يعرف ، فبقيت الثلمة من غير ما يرأبها .

انجيـــل مرقـــس :

٣٠- يقول المؤرخون أن أسمه يوحنا ويلقب بمرقس ، ولم يكن من الحواريين الأثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح ، واختصهم بالزلفى اليه ، وأصله من اليهود ، وكانت أسرته بأورشليم في وقت ظهور السيد المسيح ، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته ، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقادهم من بعد رفعه ، وألهموا بالتبشير بالمسيحية ، كما ألهموا مبادئها . ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : « وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته ، وأنه في هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه ، وفي احدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ » . وجاء في سفر الأعمال : « ان الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون في بيته » ولقد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) وبولس الرسول في رحلتهما الى انطاكية وتبشيرهما بالمسيحية فيها ، ثم تركهما بعد ذلك ،

وعاد الى أورشليم ، ثم التقى مرة أخرى بخاله ، واصطحبه الى قبرص ، ثم افترقا ، فذهب الى شمال أفريقية ودخل مصر في منتصف القرن الأول ، فأقام بها وأخذ يدعو الى المسيحية التي كانت أخبارها قد سبقته اليها ، وقد وجد في مصر أرضاً خصبة لقبول دعوته ، فدخل فيها عدد كبير من المصريين ، وكان يسافر من مصر أحياناً الى رومة وأحياناً الى شمال أفريقية ، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له ، فأستمر بها الى أن أئتمر به الوثنيون ، فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه ، وكان ذلك سنة ٦٢ من الميلاد ، وقد جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحواري ، وقد جاء في ذلك الكتاب عن مرقس : « صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية ، وكان ينكر ألوهية المسيح » .

اللغة التي كتب بها إنجيل مرقس وتاريخ تدوينه والإختلاف فيه وفي الكاتب :

٣١- وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية ، ولم نر أحداً من كتاب المسيحيين ناقض ذلك ، وقد ذكر الدكتور بوست في كتابه (قاموس الكتاب المقدس) أنه كتب الإنجيل باليونانية ، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية . وأخذ من ذلك أنه كتب في رومة ، ويجيء مثله في تاريخ ابن البطريق ، ففيه : « وفي عصر تارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس في مدينة رومية ، ونسبه الى مرقس » .

ونوجه نظر القارىء الى ما قاله ابن البطريق من أن الذي كتب الإنجيل هو بطرس عن مرقس ، ونسبه اليه ، فكأن بطرس راوي مرقس ، مع أن الأول رئيس الحواريين - كما يقول ابن البطريق - والثاني من تلاميذه ، كما جاء في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار . وإذا كان

ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحية ، فإذا رواه عنه أستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه ، وأن ذلك لغريب ، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : « قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته » . وقد ذكر الأمر بلفظ الزعم ، كأنه لا يصدقه ، وأنه لا يراه مقبولاً ، كما نراه غريباً ، ولكن هكذا يذكر الرواة . وبجوار هؤلاء الذين يقولن أو يزعمون أن إنجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس ، آخرون يقولون ويقرون أن مرقس ما كتب انجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم أرينيوس : « ان مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس » .

وفي الحق ان ذلك الاختلاف ، وان كان زمنياً في ظاهرة ، هو في معناه ولبه ، اختلاف في شخص المحرر لهذا الانجيل . فابن البطريق ، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر ان الذي كتبه هو بطرس عن مرقس ، ونسبه اليه ، وأرينيوس يقرر أن الذي كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس ، لأنه كتبه بعد موته ، فمن الكاتب اذن ؟ ليس بين أيدينا ما نرجح به احدى الروايتين على الأخرى !. ولنتجاوز هذا الى تاريخ كتابة ذلك الإنجيل ، فنجدهم أيضاً قد اختلفوا في زمان تأليفه ، وقد قال في ذلك هورن : « ألف الانجيل الثاني سنة ٥٦ ومابعدها الى سنة ٦٥ والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ » ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين : أنه كتب سنة ٦١ .

إنجيـــل لوقـــا :

٣٢- يقولون : ان لوقا ولد في انطاكية ، ودرس الطب ، ونجح في ممارسته ولم يكن من أصل يهودي ، ولقد رافق بولس في أسفاره وأعماله ، وجاء في رسائل بولس ما يشير الى هذه الرفقة ، وتلك الملازمة . ففي الاصحاح الرابع من رسالته الى كولوسي يقول : « ويسلم عليكم لوقا

الطبيب الحبيب » ، وفي الاصحاح الرابع من رسالته الثانية الى أهل تيموثاوس يقول : « لوقا وحده معي » ، وفي رسالته الى أهل فليمون يقول : « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا العاملون معي » . من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو الأنطاكي ، الطبيب ، ومثل هذا جاء في تاريخ ابن البطريق ، ويستنبط القس ابراهيم سعيد من كون لوقا طبيباً معاني كثيرة تسمو بانجيله ، فيقول : « وكان لوقا طبيباً ، وهذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقي على حياة لوقا نوراً ساطعاً ، فترينا أياه الرجل العلمي العملي المدقق المحقق ، الرقيق الأسلوب ، الجميل الديباجة ، لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب ، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة » ، ثم يبين : « أن كونه طبيباً قد سرد ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعياً هادئاً من غير محاولة التدليل على جوازه ، يؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم ، وان كان فوق متناول العالم ، وليس ضد الطبيعة ، وأنه فوق مجرى الطبيعة » . ويرجح – كما قال كثيرون – أنه ولد بانطاكية ، ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن أنطاكياً ، ويبين أن الذين يقولون أنه انطاكي وهموا ذلك أو ظنوه من اشتباهه بلوكيوس ، فيقول : ظن بعضهم أنه (لوقا) مولود في انطاكية إلا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس . وزعم بوست انه كان رومانياً نشأ بإيطاليا . ومهنة الطب التي نسب اليها ليست أيضاً موضع اتفاق ، لأن بين المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصوراً .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقيني بمولد وصناعة كاتب هذا الإنجيل ، فمن قائل أنه انطاكي ولد بانطاكية ، ومن قائل انه روماني ولد بإيطاليا ، ومن قائل انه كان طبيباً ، ومن قائل انه كان مصوراً ، وكلهم يتفقون على انه من تلاميذ بولس ورفقائه ، ولم يكن من

تلاميذ المسيح ، ولا من تلاميذ حوارييه . ولبولس هذا شأن خطير في المسيحية كما سنبين .

من كتب لهم إنجيل لوقا ، ولغته ، واختلافهم حوله :

ويختلفون أيضاً في القوم الذين كتب لهم أولاً هذا الإنجيل . فالقس إبراهيم سعيد يقول : « انه كتب لليونان ، وإنجيل متى كتب لليهود ، وإنجيل مرقس يقول كتب للرومان ، وإنجيل يوحنا كتب للكنيسة العامة » . وانا نجد إنجيل لوقا يبتدىء بهذه الجملة : « اذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، رأيت أيضاً ، اذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي اليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » . وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق أنه من عظماء الروم ، فيقول في ذلك : « وكتب لوقا إنجيله الى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيلا . وكتب اليه أيضاً الأبركسيس الذي هو أخبار التلاميذ » وهي الرسالة المسماة أعمال الرسل ، وهناك من يقول ان ثاوفيلس هذا كان مصرياً ، لا يونانياً ، فهو قد كتب للمصريين لا لليونانيين .

ويقول الدكتور بوست في تاريخه : « قد كتب هذا الإنجيل قبل خراب أورشليم وقبل الأعمال ، ويرجح أنه كتب في قيصرية في فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ – ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك » . ومن هذا يفهم أن بوست يرجح أنه ألفه وبولس حي في الأسر ، ولكن يحقق العلامة لارون أنه حرر انجيله بعد أن حرر مرقس انجيله ، وذلك بعد موت بطرس ، وبولس . والواقع أن باب الخلاف في تاريخ تدوين هذا الانجيل أوسع من ذلك ، فقد قال هورن : ألف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ .

ولا نترك هذا الانجيل من غير أن نقول ان الباحثين قد اختلفوا في شخصية كاتبه وفي صناعته ، وفي القوم الذين كتب لهم ، وفي تاريخ تأليفه ، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه . ولا على أنه كتب باليونانية .

إنجيــل يوحنــا :

٣٣- لهذا الانجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث ، لأنه الانجيل الذي تضمنت فقراته ذكراً صريحاً لألوهية المسيح ، فهذه الألوهية يعتبر هو نص اثباتها وركن الاستدلال فيها . ولذلك كان لابد من العناية به ، اذ كان التثليث هو شعار المسيحية ، وهو موضع مخالفتها لديانات التوحيد ، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات . ويقول جمهور النصارى : ان كاتب هذا الانجيل هو يوحنا الحواري ابن زبدي الصياد الذي كان يحبه السيد المسيح ، حتى أنه استودعه والدته وهو فوق الصليب ، كما يعتقدون ، وقد نفى في أيام الاضطهاد الأولى ، ثم عاد الى أفسس ، ولبث يبشر فيها ، حتى توفى شيخاً هرماً .

هذه خلاصة ما جاء بكتاب مرشد الطالبين ، ولكن بجوار هؤلاء من محققي المسيحيين من أنكر أن يكون كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحواري ، بل كتبه يوحنا آخر لا يمت الى الأول بصلة روحية ، وان ذلك الانكار لم يكن من ثمرات هذه الأجيال ، بل ابتدأ في القرن الثاني الميلادي ، فان العلماء بالمسيحية في القرن الثاني الميلادي أنكروا نسبة هذا الإنجيل الى يوحنا الحواري ، وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري ، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة ، ولو كانت صحيحة لعلم بذلك حتماً تلميذه بوليكارب ، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس ، ولأعلن هذا تلك النسبة عندما شاع انكارها . ولقد قال استادلين في العصور المتأخرة : « ان كافة إنجيل

يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية ، ولقد كانت فرقة الوجين في القرن الثاني تنكر هذا الانجيل وجميع ما أسند الى يوحنا ، ولقد جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : « أما انجيل يوحنا فانه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض . وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادعى هذا الكاتب المرور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً ، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت اليه ، وانا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ، ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفلسفي – الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني – بالحواري يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى » .

هذا قول بعض الباحثين من كتابهم : « ومن البدهي أن يعد المتعصبون ذلك القول خروجاً على وجه المسيحية ، ولذلك قال أحد هؤلاء المتعصبين ، وهو الدكتور بوست راداً على هؤلاء : وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل ، لكراهتهم تعليمه الروحي ، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح ، غير أن الشهادة بصحته كافية ، فان بطرس يشير الى آية منه (٢ بط ١ : ١٤ قال يو ٢١ ، ١٨ ، واغناطيوس وبوليكرس يقتطفان من روحه وفحواه . وكذلك الرسالة الى ديو كنيتس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانياس ، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها الى منتصف القرن الثاني ، وبناء على هذه الشهادات ، وعلى نفس كتابه الذي يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلمه ، وإلا فكاتبه

من المكر والغش على جانب عظيم ، وهذا الأمر يعسر تصديقه ، لأن الذي يقصد أن يغش العالم لا يكون روحياً ، ولا يتصل الى علم وعمق الأفكار والصلات الموجود فيه ، واذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بوناً عظيماً ، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادراً على تأليف كذا ، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا ، ويوحنا ذاته لا يستطيع تأليفه بدون الهام من ربه » .

واذا نظرنا الى هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين ، قسم يعلن به الكاتب شدة ايمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه . وهو القسم الذي ذكره في عجز قوله ، وهو أنه لا يستطيع أحد من الآباء ، بل لا يستطيعه أحد من الحواريين ، بل لا يستطيعه الكاتب نفسه إلا بالهام من ربه ، ويلحق بهذا الجزء ما سبقه مما يماثله ، فان من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجاً ، فانه ليس فيه أية محاولة لها ، أما القسم الثاني فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر في صدر قوله ، فانه يقرر الاتفاق بين نص جاء فيه ، ونص جاء في رسالة بطرس الثانية . فهو يقول : ان الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الأول ونصها مع الفقرة التي قبلها : « ١٣– ولكنني أحسبه حقاً ما دمت في هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة – ١٤ – عالماً أن خلع مسكني قريب ، كما أعلن ربنا يسوع المسيح أيضاً » موافقة للفقرة الثامنة عشرة من الاصحاح الحادي والعشرين من إنجيل يوحنا ونصها : « الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذلك ، وتمشي حيث تشاء ، ولكن متى شخت فانك تمد يدك ، وآخر يمنطقك ، ويحملك حيث لا تشاء » .

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لا في اللفظ ولا في المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة ، ولا جامع بينهما ، فظننا أن هناك خطأ

فيما كتبه الدكتور بوست ، وقلنا لعله يريد الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية ، فرجعنا الى الفقرة الرابعة عشرة من الاصحاح الأول من الرسالة الأولى ، فوجدنا نصها هي وما قبلها هكذا : « لذلك منقطوا أحقاء ذهنكم صاحين فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتي بها اليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة ، ولا تشاكلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم » . وهنا نجد بعضاً من الموافقة في اللفظ ، والموافقة في المعنى ، فرجحنا أنه أراد هذه الرسالة ، وسبق قلمه فدون الثانية بدل الأولى ، وعلى ذلك نناقش القول على أساسها ، وأساس المناقشة ما نعرفه من أن المتأخر ان وافق قوله من سبقه يكون قوله شهادة للسابق ، ولا يكون قول السابق شهادة له ، وأيهما أسبق تدويناً رسالة بطرس أم إنجيل يوحنا ، وقد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتله نيرون ، ويقول في ذلك ابن البطريق : « وأخذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكساً وقتله ، لأن بطرس قال له : ان أردت أن تصلبني فاصلبني منكساً لئلا أتشبه بسيدي المسيح ، فانه صلب قائماً » .. وعاش بطرس بعد السيد المسيح اثنتين وثلاثين سنة ، فكأن بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥ ، لأن المسيح صلب في اعتقادهم ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، يضاف اليها اثنتان وثلاثون سنة عاشها بعده بطرس . ومن المؤكد أن انجيل يوحنا كتب بعد ذلك ، فقد كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست ، فاذا وجدنا اتفاقاً بين ما كتب في هذا الانجيل ، وما جاء في رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الانجيل شاهداً لبطرس ، لا أن بطرس شاهد له ، وشهادة انجيل يوحنا لا قيمة لها ، لأنها شهادة انجيل في نظر من أنكروه مجهول غير معروف يحتاج الى دليل ، فلا حجة في هذا الأمر ، وعلى ذلك يكون الأمر في غيره من الشهادات ، وسنبين عند مناقشة كتبهم كثيراً من أوجه النقد فيها .

تأريـخ تدويـن هذا الإنجيـل وسبب تدوينـه :

٣٤- ولقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافاً بيناً . فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦ ، ويقول هورن في تاريخ تدوين ذلك الإنجيل : ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد » اذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الإنجيل ، كما أنه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه ، وقد علمت ما في ذلك .

ولقد قالوا انه كتب لغرض خاص ، وهو أن بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس بإله ، وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة ، فطلب الى يوحنا أن يكتب إنجيلاً يتضمن بيان هذه الألوهية ، فكتب هذا الإنجيل ، وقد قاله جرجس زوين اللبناني فيما ترجمه : « ان شيرينطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا أنساناً ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك في سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون ، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح » قال يوسف الدبس الخوري في مقدمة تفسيره : (من تحفة الجبل) ان يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها ، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح ، فطلبوا منه اثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ، ولوقا في أناجيلهم ، وقال صاحب مرشد الطالبين : انه لا يوجد اتفاق بين العلماء يضبط السنة التي فيها كتب يوحنا إنجيله ، فان بعضهم يزعم أنه كتبه في سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم ، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يرون بكتابته في سنة ٩٨ ، وذلك بعد رجوعه في النفي ، فالمقصد بكتابته أبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات

التروي مما لم يذكره باقي الانجليين ، وافناء لبعض هرطقات مفسدة ، أشهرها معلمون كذبة في شأن ناسوت المسيح وموته ، وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل في الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم ، وقد قيل ان يوحنا لم يؤلف انجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك » .

ما يستنبط من سبب كتابته :

٣٥- من هذه النقول يستفاد أن كتاب النصارى يجمعون أو يكادون على أن الانجيل المنسوب الى يوحنا كتب لاثبات ألوهية المسيح التي اختلفوا في شأنها ، لعدم وجود نص في الاناجيل الثلاثة يعينها . وهنا لا يسع القارىء لتلك النقول إلا أن يستنبط أمرين : **(أحدهما)** صريح وهو أن الاناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح ، أو هي كانت كذلك قبل تدوين الانجيل الرابع على الأقل ، وهذه حقيقة يجب تسجيلها ، وهي أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح ، **(وثانيهما)** أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الانجيل الذي يدل عليها ، ويصرح بها ، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا دليلاً ناطقاً يثبت ذلك ، فاتجهوا الى يوحنا ، فكتب كما يقولون انجيله الذي يشتمل على الحجة ، وبرهان القضية ، والبينة فيها على زعمهم ، وهذا ينبىء عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص في الكتب عليه ، وإلا ما اضطروا اضطراراً الى انجيل جديد طلبوه افتقدوه ، فلما لم يجدوا طلبوا من يوحنا أن يكتبه ، ولكن الواقع أن رسائل الرسل التي كتبت في قولهم قبل هذا الانجيل ، فيها ما ينبىء عن ألوهية المسيح ، ويعلنها ، أفلم تكن فيها حجة لا تجعلهم في حاجة ماسة الى انجيل جديد ، وفيها غناء من البيان يغنيهم عن سواه أم لعل تلك

الرسائل المشتملة على هذه الألوهية كتبت بعد هذا الانجيل ليؤيدوه بها ، وليثبت ما أتى به ، ويرسخ في نفوس المسيحيين ، ثم نسبت الى السابقين .

هذا تنبيه مجمل اضطرنا سياق البحث لبيانه قبل أوانه ، وفي غير مكانه ، وله في البحث موضع ، يغني فيه الاجمال عن التفصيل .

هذه الأناجيل لم تنزل على عيسى عليه السلام :

٣٦- هذه هي الأناجيل التي ذكرناها كما كتب النصارى ، لا يعتقد غيرهم ، وسنلقي عليها نظرة علمية بعد الكلام في بقية الكتب ، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه الى أن هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام في نظرهم ، وليست منسوبة له ، ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمي اليهم ، وهي تشتمل على أخبار المسيح وقصصه ، ومحاوراته ، وخطبه ، وابتدائه ونهايته في الدنيا كما يعتقدون هم .

انجيـــل عيســـى :

ولكن هل هناك إنجيل غيرها يعد انجيل عيسى ؟ وهل في كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الانجيل ، وان كنا لا نجده؟ نجد في هذه الأناجيل عبارات تذكر كلمة انجيل أو بشارة (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية) مضافة أحياناً الى المسيح على أنه ابن الله ، وأحياناً الى الله ، وأحياناً الى ملكوت الله ، فنرى مثلاً في انجيل متى في الاصحاح الرابع منه ما نصه : « وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض ، وكل ضعف في الشعب » ، وبشارة الملكوت هي ترجمة كلمة انجيل باليونانية ، ونرى في انجيل مرقس في الاصحاح الأول منه : « وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع الى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان ، واقترب

ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالانجيل » وجاء في رسالة بولس الى أهل رومية في الاصحاح الأول منها : « أولاً اشكر الهي يسوع المسيح من جهة جميعكم ، ان ايمانكم ينادي به في كل العالم ، فان الله الذي أعبده بروحي في انجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم ... » ويجيء في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس في اصحاحها التاسع : « بصرت الضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً ، وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل ، لأكون شريكاً فيه » ففي هذا كله نجد كلمة انجيل أو كلمة بشارة (وهي ترجمة كلمة إنجيل باليونانية) مضافة الى ملكوت الله ، كما في انجيل متى ومرقس ، وانجيل الابن كما في رسالة بولس الى أهل رومية ، وكلمة الانجيل من غير اضافة كما في انجيل مرقس ، ورسالة بولس الى أهل كورنثوس الأولى ، ولا شك أن الانجيل المذكور في كل هذا ليس واحداً من هذه الأناجيل لأنها لا تضاف إلا الى اصحابها باتفاق النصارى ، ولأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل كما جاء في عبارة متى التي نقلناها ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد في عهده بالاتفاق ، وليس من المعقول أن يعظ بأقواله تلاميذه ، وهم بعد لا يزالون في دور التعلم ، ولأن هذا الانجيل قد ذكر في هذه الأناجيل على أنه كان قائماً في عهد عيسى ، ولأنه ذكر من غير نسبة كما في انجيل مرقس ورسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف اليه كلمة انجيل من غير نسبته الى صاحبه ، ولأنه ذكر في رسالة بولس الى أهل رومية منسوباً الى المسيح الابن ، وليس واحد من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم . لهذا كله نقول : ليس هذا الانجيل واحداً منها كما تقضي بذلك طبيعة السياق ، وكما يقضي بذلك العقل ، واذا كان الأمر كذلك ، فهل لنا أن نفهم أن هناك انجيلاً أصيلاً نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ ، ويعتبر الأصل لهذه الديانة ؟.

أقوال علماء النصرانية في انجيل عيسى :

ولقد يمهد لذلك الرأي ، ويرشح له – اننا وجدنا من مؤرخي المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم في بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت في القرن الأول رسالة تعتبر أصلاً لهذه الأناجيل فيما جاء به المسيح ، وخلاصة أحواله ، وهذا ترجمة ما قاله نارتن في كتاب له : « قال أكهارن في كتابه : انه كان في ابتداء الملة المسيحية في بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال انها هي الانجيل الأصلي ، والغالب أن هذا الانجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ، ولم يروا أحواله بأعينهم . وكان هذا الانجيل بمنزلة القلب ، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب » .

اذن فهؤلاء الأحرار يقررون أنه كان هناك انجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب ، ولكنه غير موجود ، فهل لنا أن نقول ان ذلك الانجيل هو المشار اليه في أقوال متى ، ومرقس ، وبولس السابقة ، وهو الذي نزل على عيسى ، أهو انجيله وانجيل الله ؟ ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت ، ليت هذا الانجيل كان قائماً ، وحرصت الكنيسة على بقائه . وقامت بحياطته ، ليكون فيصلاً بين المختلفين ، وحكماً بين الفرق والمفترقين ، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التي حكمت حين الانشقاق ، وليكون مصدراً علمياً لمن يكتب في المسيحية الأولى . ويتبعها في مدارجها في أحقاب الزمن ، وملابسات التاريخ .

إنجيـــــل برنابـــا :

٣٧- لقد كتبنا خلاصة ما بينه المسيحيون في أناجيلهم الأربعة ، واستنبطنا من نصوصها ما يدل على وجود انجيل أصيل ، هي منه الفرع من الأصل ، على أن في ذلك كلاماً قد طويناه الى موضعه من القول ،

وقد أيدنا في استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين ، واستنبطوا قريباً مما استنبطنا ، وقبل أن نغادر الكلام في الأناجيل الى الكلام في الرسائل يجدر بنا أن نتكلم في انجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمي ، وقد حمل من الامارات ما يدل على أنه في نشأته يمتد الى أبعد أعماق التاريخ المسيحي ، وأبعد أغواره ، وهو يشبه الأناجيل القائمة في أنه قصة المسيح من ولادته الى اتهامه . ويحكي محاوراته ، ومناقشاته وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به وأنكرته ، فليس معتبراً عند المسيحيين مصدراً دينياً ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية ، وقد اتجهو اليه بالبحث والعناية ، والاهتمام ، ولم يمنعهم من ذلك انكار الكنيسة له . ذلك الانجيل هو انجيل برنابا ، ومن الحق علينا أن ندرسه ، ونعرف رأي المسيحيين فيه ، ومما يؤدي اليه النظر العلمي من غير أفتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من املاء عقيدة على القوم في دينهم .

برنابـــــا :

٣٨- جاء ذكر برنابا في رسالة أعمال الرسل التي ينسب تدوينها الى لوقا . فقد جاء في الاصحاح الرابع من تلك الرسالة : « ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ . وهو لاوي قبرصي الجنس ، اذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ، ووضعها عند أرجل الرسل » ، وجاء في الاصحاح التاسع عند الكلام عن ايمان شاول – وهذا هو الذي اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول – أن برنابا هو الذي شهد له بالايمان ، وهو نص ما جاء فيه : « ولما جاء شاول الى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ . وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره الى الرسل . وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق ، وأنه كلمه ، وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع » ولقد ذكر

ذلك السفر أيضاً انه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية ، وفي الاصحاح الحادي عشر : « فسمع الخبر عنهم في آذن الكنيسة التي في أورشليم ، فأرسلوا برنابا لكي يجتاز الى انطاكية ، الذي لما أتى ، ورأى نعمة الله فرح ووعظ أن يثبتوا في الرب بعزم القلب . لأنه كان رجلاً صالحاً ، وممتلئاً من الروح القدس والايمان ، فانضم الى الرب جمع غفير ثم خرج برنابا الى طرسوس ليطلب شاول ، ولما وجده جاء به الى انطاكية ... » ، ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطاب هووبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمين ، فقد جاء في الاصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال : « وكان في أنطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون : برنابا وسمعان الذي يدعى نيجر ، ولوكبوس القيرواني . ومنابن الذي تربى مع هيرودس رئيس الربع ، وشاول .

وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما اليه ، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادي ثم أطلقوهما ، فهذان ، اذ أرسلا من الروح القدس انحدرا الى سلوكية ، ومن هناك سافرا في البحر الى قبرص . ولما سارا في سلاميس ناديا بكلمة الله في مجامع اليهود ، وكان معهما يوحنا خادماً » وقد استمر برنابا وبولس متصاحبين في التبشير بالديانة المسيحية في قبرص . وحدثت على أيديهما المعجزات ، حتى زعم الناس أنهما إلهان . وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما : فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما ، واندفعا الى الجمع صارخين وقائلين : « أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم ، نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل الى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، الذي في الأجيال الماضية ترك جميع الأمم ، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد » .

ومن هذا كله يتبين أن رسالة الأعمال تشهد أن برنابا كان من

الرسل في اعتقادهم ، الذين أخلصوا للدعوة الى المسيحية ، حتى باع كل ما يملك ؟ والقى بثمنه بين أيدي الرسل يتصرفون به في سبيل نشر الدعوة ، وينفقونه في حاجات الجميع . وأنه هو الذي شهد لبولس بالايمان ، وان الكنيسة أرسلتهما مبشرين بالمسيحية في قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده الى أنطاكية ، وأن برنابا كان رجلاً صالحاً ممتلئاً من الروح ، وأن الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون .

وينص بولس في رسالته الى أهل كولوسي في أصحاحها الرابع على أن مرقس صاحب الانجيل ابن أخت برنابا ، فيقول : « يسلم عليكم ارسترخص المأسور معي ، ومرقس ابن اخت برنابا الذي أخذتم لأجله ان أتي اليكم فاقبلوه » .

ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس في سفرهما للدعاية والوعظ . ولقد افترقا بسبب ارادة برنابا أن يصحبهما ابن أخته في الطواف في المدن التي سبقت اليها الدعاية ، ومخالفة بولس لذلك ، ولذلك جاء في رسالة الأعمال في أصحاحها الخامس عشر ما نصه : « ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا : لنرجع ونعتقد اخواننا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب ، كيف هم ؟ فأشار برنابا أن يأخذ معهما أيضاً يوحنا الذي يدعى مرقس ، وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيلية ، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما ، فحصل بينهما مشاجرة ، حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر الى قبرص ، وأما بولس فاختار سيلا ، وخرج مستودعاً من الأخوة الى نعمة الله » .

ولقد أشرنا الى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الانجيل عند الكلام في انجيل مرقس ، ونقلنا من كتب المسيحيين ما يدل على ان مرقس

هذا ، وهو حجة عندهم باتفاق ، كان ينكر ألوهية المسيح ، هو واستاذه بطرس ، وقد نقلنا عن مروج الأخبار في تراجم الأبرار ما يدل على ذلك .

هل برنابا من الحواريين الاثنى عشر :

٣٩- هذا هو برنابا ، قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التي قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد انجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى اليه ، والتقرب منه ، وملازمته في سرائه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لا تعده من هؤلاء الحواريين وان كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين في هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شيء في هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم ، فان برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملهمين في اعتقادهم ، فان صحت نسبة هذا الانجيل اليه كان ما يشمله حجة عليهم ، يدعوهم الى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء في غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب الى التصور والتصديق ، وأصح سنداً ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً .

فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت في العصر الحديث .

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الانجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الايطالية ، عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا ، وذلك في سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار في سنة ١٧٣٨ الى البلاط الملكي بفيينا . وكانت تلك النسخة هي الأصل لكل نسخ هذا الانجيل في اللغات التي ترجم اليها .

ولكن في أوائل القرن الثامن عشر ، أي في زمن مقارب لظهور النسخة الايطالية وجدت نسخة أسبانية ترجمها المستشرق سايل الى اللغة

الانجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها الا شذرات أشار اليها الدكتور هوايت في احدى الخطب ، وقد قيل ان الذي ترجم النسخة الأسبانية الى تلك اللغة مسلم نقلها من الايطالية الى الأسبانية .

ولقد رجح المحققون أن النسخة الايطالية هي الأصل للنسخة الأسبانية ، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذي كشف النقاب عن النسخة الايطالية التي كانت أصلاً للنسخة الأسبانية راهب لاتيني اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها ، فيقول : « انه عثر على رسائل لأيريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول . ويسند تنديده الى انجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع الى البحث عن إنجيل برنابا . وقد وصل الى مبتغاه لما صار أحد المقربين الى البابا سكتس الخامس . فانه عثر على ذلك الانجيل في مكتبة هذا البابا ، فأخفاه بين أردانه ، وطالعه ، فأعتنق الإسلام » ويظهر أن تلك النسخة هي نفسه النسخة التي عثر عليها سنة ١٧٠٩ .

ويقول في ذلك الدكتور سعادة مترجم الانجيل الى العربية : « اذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر . وقد علمت مما مر بك بيانه أن نوع الورق الذي سطر فيه انما هو ورق ايطالي يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التي فيه ، والتي يمكن اتخاذها دليلاً صادقاً على تاريخ النسخة الايطالية والتاريخ الذي يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر ، والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الايطالية هي عينها التي اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على ما مرت الاشارة اليه » .

الكلام في صحة تسمية هذا الانجيل :

٤٠- أقدم نسخة معروفة اذن هي النسخة الايطالية التي عثر عليها في فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد الى منتصف القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت في جو مسيحي خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم .

فأول من عثر عليها في خزانة كتبه رئيس ديني خطير . وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدي انتقلت الى مستشار مسيحي من مستشاري ملك بروسيا ، ثم آلت الى البلاط الملكي بفيينا فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهي منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الأسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود انجيل له أمراً معروفاً بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول انه طلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهداً على استنكاره بانجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة - كما أشرنا من قبل ، ويقول الدكتور سعادة : « يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفي عدادها كتاب يسمى انجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين الى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه انما هو برمته تزوير » .

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وان كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى في تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فاذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلاف ، واذا صح ذلك الأمر - كما يشهد التاريخ ، وكما تنبىء عنه المقدمات والنتائج ، فان انجيل برنابا كان معروفاً متداولاً قبل بعثة النبي ﷺ بأكثر من قرنين .

وزعم الدكتور سعادة بأنه لو كان معروفاً في ذلك الابان لعرفه النبي ﷺ واحتج به ، أو أخذ منه - زعم باطل - لأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقم في البلاد التي سادتها المسيحية آماداً تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضي قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيخفى ما كان ذائعاً ، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً فمائتان من السنين تكفي لطمس الموجود ، وتعفية آثار المفقود .

وان المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الانجيل أخباراً دقيقة عن التوراة حتى لقد يقول الدكتور سعادة : « انك اذا أعملت النظر في هذا الانجيل وجدت لكاتبه الماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد لها مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفراد قليلين من الاخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين ، كالمفسرين ، حتى انه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له المام بالتوراة يقرب من المام كاتب انجيل برنابا » .

ترجيح صدق النسبة في هذا الانجيل :

٤١- هذه بينات شاهدة - وان لم تبلغ اليقين والجزم - بأن نسبة هذا الانجيل الى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى في جو مسيحي خالص ، وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا انجيلاً ، وهو يدل على أن كاتبه على المام تام بالتوراة التي لا يعرفها الرجل المسيحي غير الاختصاصي في علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من المختصين ، وأن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا في الدعوة عملاً لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلابد أن تكون له رسالة أو انجيل .

هذه بينات تشهد بأن الانجيل الذي كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل في يده

شيئاً يظن في حمله اتهاماً له . فيسند ملكيته الى غيره نفياً للتهمة عن نفسه . فهل يقبل منه ذلك النفي من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاماً له ؟ وهل يقر القضاء ذلك النفي ؟ .

قد يقول قائل : ان هذه البينات كلها مرجحة وليست يقينية ، ونحن نقول ان أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة ، فاذا كانت نسبة انجيل برنابا اليه ظنية تقبل الاحتمال فانا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ في أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل لا يلتفت اليه ، بجوار الاحتمال الناشيء عن دليل ، ووجود ذلك الانجيل بلغة مسيحية وبين ظهراني المسيحيين ، وفي مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد في انشائه .

ولكن زعم بعضهم أن أصله عربي ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعي ذلك الأصل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ، ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربي بدليل أنه وجد على النسخة الايطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح في التبشير باسم النبي ، مع أن المعهود في البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة ، وسقيم العبارة في أحيان كثيرة ، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي ، ولا يتخذ من صلبه الايطالي دليلاً على أصله المسيحي .

أما كون التبشير بالنبي ﷺ صريحاً فيه وليس بتلميح فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات في الكتب الدينية تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح ،

ولكن ليس معنى ذلك نفي الصريح ، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح ، فالنص الايطالي الذي بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه في لغته التلميح ، فنطق بالتصريح كما يفعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبري .

ومن المؤكد أن ذلك الانجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين في غابرهم وحاضرهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة في كل العصور ، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظره المسيحي بهذا الانجيل ، مع أنه فيه الحجة الدامغة التي تفلج المسلم على المسيحي ، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هي الأصل للنسخة الايطالية ، فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً ، ولو بطريق الوهم هي تناقض أخبار التاريخ الإسلامي مناقضة تامة ، والا احتج المجادل عن الإسلام بها . ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذي سجلاته ليستنبطوها . وليعرفوا دخائلها ، فلن يجدوا شيئاً يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

قيمة انجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه :

٤٢- وانجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة ، والدقة البارعة ، والعبارة المحكمة ، والمعنى المنسجم ، حتى انه لو لم يكن كتاب دين لكان في الأدب والحكمة من الدرجة الأولى ، لسمو العبارة وبراعة التصوير .

ولماذا أنكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة في كتبهم الأربعة كما ذكرنا ، ان لم تكن أقوى ؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم في مسائل جوهرية في العقيدة .

ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على

التفكير من جديد في مصادر الدين ، لتعرف أي الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى ، أذلك الانجيل بما خالف ، أم الرسائل والأناجيل التي توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا الى الرفض والأنكار . كما سبق أسلافهم الى انكاره من قبل .

مخالفة انجيل برنابا لما عليه المسيحيون :

والأمور التي خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص في أربعة أمور :

أولها : انه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره الهاً ، وقد ذكر ذلك في مقدمته فقال : « أيها الأعزاء ان الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر . داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته » .

ويقول في آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن ان اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله ، فاضطررت بسبب الشعب الى أن آتي الى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بازالة الفتنة التي ثارت بسببك ، لأن فريقاً يقول انك الله ، وآخر يقول انك ابن الله ، ويقول فريق انك نبي . أجاب يسوع : « وأنت يا رئيس الكهنة . لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جننت أنت أيضاً ، وهل أمست النبوات ، وشريعة الله نسياً منسياً ، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان » ولما قال يسوع

هذا عاد فقال : « اني أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر ، لأني بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله . أعيش كسائر البشر . عرضة للشقاء العام » .

ويقول في الفصل السبعين : « أجاب يسوع : وما قولكم أنتم في ؟ أجاب بطرس : أنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع . وأنتهره بغضب قائلاً : اذهب . وانصرف عني . لأنك أنت الشيطان ، وتريد أن تسيء إلي » .

(الأمر الثاني) : ان الذبيح الذي تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل ، وليس باسحاق ، كما هو مذكور في التوراة ، وكما يعتقد المسيحيون . هذا نص ما جاء في انجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم أنكم اذا أمعنتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلموا خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : « ياإبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله . حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد ان يفعل كل ما يريد الله فكلم الله حينئذ قائلاً : « خذ ابنك بكرك وأصعد الجبل لتقدمه ذبيحة ». فكيف يكون اسحاق البكر ، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع[1] سنين .

(الأمر الثالث) : هو كما يقول الدكتور سعادة « بك » : ان مسياَ أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد . وقد ذكر محمداً باللفظ

(١) كذا في الأصل – وقد ذكر صاحب كتاب « مقارنة الاديان ، ج ١ ، ص ٦٥ للدكتور أحمد شلبي : ان عمر إسماعيل أربعة عشر عاماً حين ولد إسحاق . فليراجع . أ.هـ مصحح .

الصريح المتكرر في فصول ضافية الذيول ، وقال انه رسول الله ، وان آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور « **لا إله إلا الله محمد رسول الله** » ولقد قال المسيح كما جاء في إنجيل برنابا : « ان الآيات التي يفعلها الله على يدي تظهر اني أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه ، لأني لست أهلاً لأن أحل رباطات ، أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسياً الذي خلق قبلي . وسيأتي بعدي بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وانك لتجد في الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً في التبشير بمحمد ﷺ لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به . فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ما له من شأن ..

(**الأمر الرابع**) : ان هذا الانجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم . فألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطي ، ويقول في ذلك برنابا : « الحق أقول أن صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع ، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً ، وانما الآيات التي فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال انه لا يموت الى وشك انقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم » .

ثم يبين أن يسوع طلب الى الله أن ينزل الى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام .

ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا انه مات » وقام قائلاً : « اتحسبونني أنا والله كاذبون ، لأن الله وهبني أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، الحق أقول لكم اني لم أمت ، بل يهوذا الخائن ، احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، ولكن

كونوا شهودي في كل إسرائيل ، وفي العالم كله . لكل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها » .

٤٣- هذا هو انجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفي الحق انه خالف المسيحية القائمة في خصائصها التي امتازت بها فان تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح وألوهيته ، وكان هذا شعارها الذي بها تعرف ، وعلامتها التي بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ، واذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة في ذلك الأمر الجوهري ثابتة - وهو ينسب الى قديس من قديسيهم - فقد كان من الحق اذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهراني المسيحيين وفي مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقاراً - رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً ، ما دام قد أتى بما لا يعرفونه هم ، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها الى نقضه جملة ، أو قبوله جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذي يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده، ومتنها أقرب الى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وان أجل خدمة تسدى الى الأديان والانسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ، ونقضه ، وتأتي لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء في رسائل بولس ، ليعرف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلاً ، وأقرب الى الحق ، وأوثق به اتصالاً .

رســـائل رسلهـــم

٤٤– انتهينا في كلامنا السابق الى ذكر الأناجيل وعرضها ، كما يقول المسيحيون ، وكنا في ذلك ناقلين ، ولم نعن في ذلك بالنقد ، فان لذلك موضعه .

والآن ننتقل الى القسم الثالث من مصادر المسيحية ، وهو رسائل رسلهم ، ويسمونها – ما عدا رسالة أعمال الرسل – الأسفار التعليمية ، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسفار التاريخية ، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله ، وبعض أقواله ومواعظه ، أما الرسائل فانها تعنى بالناحية التعليمية التي تبين بها الديانة .

عـدد الرسائـل وكاتبوهـا :

والرسائل اثنتان وعشرون رسالة : الأولى ، وتسمى أعمال الرسل ، وتنسب الى لوقا صاحب الانجيل ، وأربع عشرة كتبها بولس ، وهي رسالة أهل رومية وكورنثوس الأولى والثانية ، وغلاطية ، وأفسس ، وفيلبى ، وكولوسي ، وتسالونيكي الأولى والثانية ، وتيموثاوس الأولى وتيموثاوس الثانية ، وتيطس ، وفيلمون والعبرانيين ، ورسالة كتبها يعقوب ، ورسالتان كتبهما بطرس ، وثلاث رسائل كتبها يوحنا ، ورسالة كتبها يهوذا .

وهناك غير الاثنتين والعشرين رسالة أخرى يسمونها السفر النبوي ، وهي رؤيا يوحنا ، وهذه الرسالة في منحاها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة ، فبينما الرسائل السابقة وعظية وتعليمية في جملتها ، وتتعرض كثيراً لذكر بنوة المسيح ، وتخليصه للعالم من خطيئته ، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتي ، تعنى ببيان ألوهية المسيح وسلطانه في السماء وعلمه

بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده ، وهي تارة تصور الآله في عليائه كشيخ أشيب يشبه المسيح متمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وعيناه كلهب نار ، وفي يده سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فيه ، (راجع الاصحاح الأول من الرؤيا) .

وتارة تصور المسيح خروفاً قائماً كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين ، (راجع الاصحاح الخامس) .

وتبين أن الناس يعرضون أمام الآله والمسيح « ويخرون ساجدين ، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا ... » .

فهي رسالة تشرح سلطان المسيح في الملكوت وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح ولله .

٤٥- وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل ، وقد كتبت جميعها باليونانية ، كما يقول مؤرخوهم ، وللباحثين كلام كثير في شأن الرسائل ، وقوة سندها ، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين ، ولكنا نرجىء القول في ذلك الى الكلام في نقد مصادر المسيحية نقداً علمياً ، ونكتفي الآن بعرضها وذكرها ، محوطة بهالة من تقديسهم ، ومكلوءة بتقديرهم .

وقد ذكرنا موجزاً لتاريخ يوحنا ، وعرفنا القارىء به ، وهو صاحب الرؤيا ، وثلاث رسائل ، وبينا لوقا ، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل ، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القارىء ببطرس صاحب الرسالتين ، ويعقوب ، ويهوذا ، ولكل رسالة ، وبولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

فبطرس من حواريي المسيح ، وكان اسمه الأصلي سمعان ، وكان صياد سمك وقد جال بعد المسيح للتبشير ، فذهب الى أنطاكية وغيرها ، ثم

ذهب الى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج في السجن . وحكم عليه بالموت صلباً في زمن نيرون على ما نوهنا . وقد طلب أن يصلبوه منكساً حتى لا يتشبه بالمسيح .

وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار في تراجم الأبرار يخبر أن بطرس وتلميذه مرقص صاحب الانجيل الذي كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر ألوهية المسيح .

ترجمة يعقوب صاحب الرسالة :

٤٦– ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدي الصياد ، أخو يوحنا ، وكان حوارياً كأخيه ، ويقولون : انه أول أسقف لكرسي أورشليم ، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : « كان لشهرته بالطهارة يعرف بيعقوب البار ، وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود ، فحكموا عليه بالموت في مجمعهم ، فمات رجماً سنة ٦٢ وكان قد كتب رسالته سنة ٦١ م » .

ترجمة يهوذا :

٤٧– وأما يهوذا ، وهو حواري ، ويقولون انه يدعى لباوس ، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذي ذكر في انجيل متى ، ولكن انجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا الأسخريوطي الذي شهد على المسيح وخانة ، وغير تداوس ، ويقولون : انه أخو يعقوب الصغير ، وعلى هذا يكون لزبدي الصياد ثلاثة من الحواريين ، ولكن متى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر أمامهما أنهما ولدا زبدي الصياد ، ولم يذكر أمام تداوس !! وعلى أية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة اليه ، وقد قالوا انه مات شهيداً ببلاد العجم .

ترجمـــة بولـــس :

٤٨- بولس : ولننتقل الآن الى الكلام في بولس والتعريف به ، وان لبولس هذا لشأناً في المسيحية ، فهي تنسب اليه أكثر مما تنسب لأحد سواه ، فرسائله هي التي شرحتها ، وقد كان بنشاطه الجم ، وتطوافه في الأقاليم مشرقاً ومغرباً ، لا يستقر في مكان على نية الاقامة فيه ، بل على قصد في الرحيل الى غيره - أشد دعاتها ، وقد تأثر المسيحيون خطاه ، وتعرفوا أخباره وأقواله ، ما دونه منها في رسائله ، وما ألقاه في الجموع وتناقلوه ، وان لم يدونه هو ، وتأثروا أعماله فاحتذوا حذوه ، وسلكوا مسلكه ، واعتبروه القدوة الأولى ، فلابد اذن من العناية بتاريخه لنتعرف أكانت منزلته في المسيحية الأولى كمنزلته في المسيحية الحاضرة ، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما ، وناقل الأولى الى أهل الثانية ، ولنتبين أنه صادق النقل ، حتى تكون الأولى والثانية شيئاً واحداً ، وليستا شيئين مختلفين .

وانا في حكاية بدايته ونهايته نعتمد على المصادر المسيحية وحدها ، كسنتنا فيما أسلفنا من القول ، حتى لا نتزيد عليهم ، ولكي نعرض الرجل كما هو عندهم .

في سفر أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس ، وقد أخذت أعماله من ذلك السفر الشطر الأكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان في طرسوس ، وتربى في أورشليم ، واسمه الأصلي شاول . وهذا نص الفقرة الثالثة من الاصحاح الثاني والعشرين حكاية عنه : « أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكة ، ولكن ربيت في هذه المدينة » (أورشليم) .

ولقد جاء أنه من الفريسيين الذين يقولون ان هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح في الدنيا ، فقد جاء في الاصحاح الثالث والعشرين : « ولما

علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون ، والآخرون فريسيون » صرح في المجمع : « أيها الرجال الاخوة ، أنا فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات . أنا أحاكم » .

ونجد كتاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود ، ولكن جاء في سفر أعمال الرسل أيضاً ما يدل على أنه روماني ، ففي آخر الاصحاح الثاني والعشرين منه ما نصه : « فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف : أيجوز لكم أن تجلدوا انساناً رومانياً غير مقضى عليه ، فاذ سمع قائد المائة ذهب الى الأمير وأخبره قائلاً : أنظر ما أنت مزمع أن تفعل ، لأن هذا الرجل روماني . فجاء وقال له : قل لي أنت روماني ؟ فقال نعم . فأجاب الأمير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية ، فقال بولس : أما انا فقد ولدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه ، واختشى الأمير لما علم أنه روماني ، لأنه قيده » .

وهذان بلا ريب نصان متعارضان ، لعل أرجحهما أنه يهودي ، لأنه ذكر أنه روماني عندما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط . فأعمل الحيلة ، عساه يجد مخرجاً ، فادعى أنه روماني لينجو جلده ، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التي احتالها في انتسابه ، وأصر عليها عندما روجع فيها .

ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلاً على كذب ادعائه الرومانية ، وأنه قالها خلاصاً واحتيالاً لورد مثل ذلك عندما قال أنه يهودي ، لأنه كان يخاطب جمعاً يهودياً عمل للقبض عليه .

ولقد صرح في سفر الأعمال أنه قال : انه قال انه فريسى ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين ، فقد جاء فيه عند ذكر اقراره بأنه فريسي . ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والآخر فريسيون ، الخ .

فهو ما صرح بهذا التصريح إلا ليوقع الفرقة بينهم ، وينجو من كيدهم بتدبير فريق منهم .

وقد تم له بعض ما أراد ، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد كما دلت على ذلك الفقرات التي ذكرت من بعد في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الأعمال ، واذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمئن اليه النفس .

٤٩- ومهما يكن من أمر جنسه ، فقد كان بولس هذا في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية ، وأبلغهم كيداً لها ، وأكثرهم امعاناً في أذى معتنقيها ، كما يدل على ذلك ما جاء في سفر الأعمال في مواضع كثيرة منه .

ففي الاصحاح الثامن منه : « وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم ، فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل ، وحمل رجال أتقياء استفانوس ، وعملوا عليه مناحة عظيمة ، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ، ويجر رجالاً ونساء ، ويسلمهم الى السجن » .

وجاء في أول الاصحاح التاسع : « أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب فتقدم الى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل الى دمشق الى الجماعات حتى اذا وجّد أناساً في الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين الى أورشليم » .

ويجيء في ذلك السفر أيضاً اعترافه الصريح بذلك الماضي في مواضع متعددة أيضاً .

فمنها ما جاء في الاصحاح الثاني والعشرين مخاطباً اليهود : « كنت غيوراً لله ، كما أنتم جميعكم اليوم ، واضطهدت هذا الطريق ، حتى

الموت ، مقيداً ومسلماً الى السجون رجالاً ونساءً ، كما يشهد لي أيضاً رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين اذا أخذت منهم رسائل للأخوة الى دمشق ، ذهبت لآتي بالذين هناك الى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا » .

ولكن سفر الأعمال يقول أن ذلك الرجل الذي كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك الايذاء ، قد انتقل من الجبت والطاغوت الى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال ، ولا تمهيدات مهدت له .

فيقول في الاصحاح التاسع : « في ذهابه حدث أنه اقترب الى دمشق ، فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض ، وسمع صوتاً قائلاً له : شاول . شاول . لماذا تضطهدني ؟ فقال : من أنت يا سيدي ؟ فقال : أنا يسوع الذي أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس مناخس ، فقال وهو مرتعد متحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل » .

دخل بولس أو شاول في المسيحية ، وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة ، ولم يصدقوا ايمانه ، ولكن شهد له برنابا الذي حدثناك عنه بالايمان ، وما حدث له في الطريق .

فقد جاء في الاصحاح التاسع أيضاً من السفر المذكور : « ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين ، فأخذه برنابا ، وأحضره الى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب ، وأنه كلمه ، وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع » .

ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة ، والحركة الدائبة في الدعاية للمسيحية ، كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال ، وقد اصطحب في رحلاته برنابا ، حتى اختلفا كما ذكرنا في الكلام على برنابا – فلما

اختلفا افترقا ، وهناك نجد حلقة مفقودة ، فلم يبين لنا سفر الأعمال على من تلقى مبادىء المسيحية التي أخذ يبشر بها ، والتي دونها في رسائله الأربع عشرة ، والتي يضيف اليها بعض الكتاب سفر الأعمال ، وينسبه اليه بدل نسبته الى لوقا ؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادىء المسيحية ؟ ولعلهم يعتقدون أنه ليس في حاجة الى التلقي ، لأنه انتقل من مرتبة الكافر المناوىء الى مرتبة الرسل في المسيحية ، وصار ملهماً **ينطق** بالوحي في اعتقادهم ، فلم يكن في حاجة الى التعلم والدراسة ، لأن الوحي كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس في التطواف في الأقاليم ينشىء الكنائس ، ويقوم بالدعاية ويلقي الخطب ، وينشىء الرسائل ، حتى كانت رسائله هي الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادىء في الاعتقاد ، وبعض الشرائع العملية ، وقد قالوا انه قتل في اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف في ذلك .

صفـــات بولـــس :

٥٠- ان الذي يستخلص من أحوال وأقوال بولس التي دونت في رسائله وأعماله التي ذكرها سفر أعمال الرسل ، يتبين له أنه امتاز بثلاث صفات جعلته في الذروة من الدعاة الى المبادىء والعقائد :

الصفة الأولى : انه كان نشيطاً دائم الحركة ذا قوى لا تكل ، وذا نفس لا تمل .

الصفة الثانية : انه كان ألمعياً شديد الذكاء بارع الحيلة ، قوي الفكر ، يدبر الأمور لما يريد بدهاء الألمعي ، وذكاء الأروعي ، يسدد السهام لغاياته ومآربه فيصيبها .

الصفة الثالثة : أنه كان شديد التأثير في نفوس الجماهير ، قوي السيطرة على اهوائهم ، قديراً على انتزاع الثقة به ممن يتحدث اليه .

وبهذه الصفات الممتازة ، وبهذه القدرة البارعة استطاع ان يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية ، وقطبهم ، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين ، فيعتنقوه ديناً ، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها ، وبهذه الصفات الباهرة استطاع أن يحمل صديقه برنابا على أن يصدقه في رؤيته المسيح ، واستطاع أن يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ ، وقد كان بلاؤهم ، وكيد الشيطان لهم . وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه ، وان يندغموا في شخصه حتى يصير هو كل شيء ، وهم لا يستطيعون رد قوله في الجماهير ، وحتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه ، منسوبة اليه ، ولقد يعجب الذين درسوا الديانات وعرفوا أحوال رجالها ، وأدوارهم . فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة الى اعتقاد شديد بها طفرة ، من غير سابق تمهيد ، ولكن ذلك العجب يزول ان كان الانتقال مقصوراً على مجرد الانتقال من الكفر الى الايمان ، فان لذلك نظائر وأشباهاً ، بل العجب كل العجب ان ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين الى الرسالة في الدين الذي كفر به ، وناوأه وعاداه ، فان ذلك ليس له نظير وليس له مشابه ، ولم يعهد ذلك في أنبياء ورسل قط ، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما رووها ، وكما قالوها ليذكروا لنا رسولاً بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي ، وصفاء نفس يجعله أهلاً للالهام ؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته ، وانه اذا لم يكن للرسالة ارهاصات قبل تلقيها ، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها ، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في عصره ، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده ، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه .

بيد أن العقل يخترق بنوره الحجب ، ويزيل بضوئه كل أسداف الظلم ، ولو قاوم في سبيل ذلك براعة بولس وذكاءه ، ولذا وجد في العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية حول أقوال بولس منكرين لها مبطلين ، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الأحد : « ان بولس يبجل ويعظم رجلاً اسمه عيسى أميت ومات ، وحيى فقط ، وأن خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد تحمل اسم الرسول المشار اليه ، فلا محل للحيرة اذا قلت ان المؤسس الحقيقي للمسيحية الحاضرة هو بولس ، فان شاول الشاب الطرسوسي من سبط بنيامين . ومن مذهب الفريسيين وتلميذ احد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمائيل ... الذي كان يجتهد في محو اسم عيسى واتباعه من الأرض ، والذي رأى عدوه الناصري في السماء لامعاً داخل الأنوار وقت الظهر امام دمشق ، اهتدى وسمي باسم بولس ، وهو الذي وضع أساس العيسوية » . والقسم الأعظم من أعمال الرسل يبحث عن سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه ، فهل هو صادق في النقل عن المسيح ، والاخبار عنه ؟ للاجابة عن هذا السؤال موضعها عند الكلام في الالهام الذي نحلوه لرسلهم ، ونقد الكتب نقداً علمياً .

كتب العهد القديم والأناجيل والرسائل كتبت بالهام في اعتقادهم :

٥١- الى هنا قد بينا الكتب ، وذكرنا طرفاً من حياة منشئيها ، وأحوالهم ومقدار الاختلاف في نسبة الكتب الى أصحابها ، وقبل أن ننتقل الى نقد هذه الكتب نقداً علمياً في متنها واسنادها ، نقول : ان المسيحيين يقولون أن هذه الكتب كلها ، كتبت بالالهام أي بالوحي عن طريق الالهام ، وانها لذلك لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهي حق وصدق ، لأنه موحى بها ، وسواء في ذلك كتب العهد

القديم ، والعهد الجديد ، سواء أكانت أناجيل أم رسائل تعليمية أم رسالة النبوة .

ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الأمة القبطية في شأن الكتاب المقدس : « الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التي كتبها رجال الله القديسيون بالهام الروح القدس في أوقات مختلفة ، وفيها أعلن الله مشيئته ووصاياه ، وما قطعه من المواعيد ، وما فرضه من المثوبة ، وما فيه ارشاد للناس وخيرهم وخلاصهم وما أتمه من عمل الفداء » وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلماؤهم نفهم أن الالهام عندهم ، هو الهام في المضمون الرئيسي ، ولذا يقول هورن : « اذا قيل ان الكتب المقدسة أوحى بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من الهام الله ، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا ، على حسب طباعهم وعاداتهم وفهومهم واستعمل علم الالهام على طريقة استعمال العلوم الرسمية ، ولا يتخيل أنهم كانوا يلهمون في كل أمر يبينونه ، وفي كل حكم كانوا يحكمون به » .

اذن لم تكن كل الكتب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيان ، ومن حيث التصرف في التعبير ، ومن حيث كل ما تشتمل عليه من معان ، بل موضع الالهام فقط المعاني الرئيسية أو الرسمية ، وبقية الأفكار والمعاني على حسب الطبائع والأفهام والعادات » .

نظـرة فاحصـة

٥٢- عرضنا على القارىء كلام القوم في كتبهم ، وحاولنا أن نكون حاكين ولم نعلق عليها ولم ننقدها ، ولم ننبه الى وهنها ، إلا اذا كان ذلك التنبيه قد سبق اليه علماؤهم ، والباحثون منهم ، ووجهوا هم النقد اليه ، أو كان الأمر من الوضوح بحيث يكون المرور عليه من غير تنبيه الى موضع الضعف يجعل البحث غير متسق ، وبعيداً عن الانسجام الفكري .

والآن نريد أن ننتقل من النظرة الحاكية المتغاضية الى النظرة الفاحصة الكاشفة ، ولسنا نريد أن نحصي كل أوجه النقد التي وجهت ، فان ذلك يحتاج بيانه الى مجلدات ضخام لكثرتها ، وتعدد نواحيها ، وكثرة دواعيها ، ولكنا نكتفي بايراد بعضها ، ونترك الباقي للاطلاع عليه في مصادره المسيحية وغير المسيحية .

ما يجب أن يكون في الكتاب الديني من صفات ليكون حجة :

لأجل أن يكون الكتاب الديني حجة - يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه ، ومجموع أوامره ونواهيه ، ومصدر الاعتقاد ، وأساس الملة - يجب أن يتوافر في هذا الكتاب أمور :

أحدها :أن يكون الرسول الذي نسب اليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك ، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة ، أي بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين المكذبين ، وأن يشتهر أمر ذلك التحدي وهذا الأعجاز ، ويتوارثه الناس خلفاً عن سلف ، ويتواتر بينهم تواتراً لا يكون للانسان مجال لتكذيبه .

ثانيها : ألا يكون ذلك الكتاب متناقضاً مضطرباً يهدم بعضه بعضاً ، فلا تتعارض تعليماته ، ولا تتناقض أخباره ، بل يكون كل جزء منه

متمماً للآخر ومكملاً له ، لأن ما يكون عن الله لا يختلف ، ولا يفترق ، ولا يتناقض ، بل ان العقلاء ، وفي كتبهم ، يتحرون ألا يتناقض قولهم ، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : أن يدعي ذلك الرسول أنه أوحى اليه به ، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة ، وهي المعجزات التي بعث بها الرسول ، ودعا الى كتابه على أساسها ، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر ، أو يثبت بالكتاب نفسه .

رابعها : ان تكون نسبة الكتاب الى الرسول الذي نسب اليه ثابتة بالطريق القطعي ، بأن يثبت نسبة الكتاب الى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف ، جيلاً بعد جيل من غير أي مظنة للانتحال .

وأساس ذلك التواتر أن يروى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، حتى تصل الى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوي عن الجمع الذي سبقه ، والذي سبقه كذلك ، حتى يصل الى الرسول الذي أسند اليه الكتاب ، ونسب اليه ، ونزل به الوحي عليه .

تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى :

٥٣- ان الكتب في الدين هي أساسه ، فان لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان الى صحتها كاملاً ، وتطرق اليها الريب والظن من كل جانب ، وبذلك يتهدم الدين من أساسه ، ويؤتي من قواعده ، ولا يكون شيئاً مذكوراً في الأديان ، بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس ، وأدعوها ديناً ، ونسبوها لشخص معترف به ، لتروج عند العامة ، وتدخل في أوهامهم ، ويعتمدون على الزمان في تمكينها في نفوسهم وقلوبهم .

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أم العهد الجديد مستوفية هذه الشروط ، فتكون ملزمة للكافة ؟.

لا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها المسيح نفسه ، حتى ننظر في قوة نسبتها اليه ، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها ، يبشرون الناس بما فيها ، فنبحث ، هل هؤلاء رسل حقاً وصدقاً قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه ؟.

لقد قلنا أن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم ، ويتحدوا الناس ليدفعوهم الى الاذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم .

اننا نبحث في مراجعهم فلا نجد مرجعاً صحيحاً قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة ، ودعوا الناس الى الايمان بها ، ومعهم البرهان عليها ، والدليل القائم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم قد نجد في رسالة أعمال الرسل ذكراً لأخبار تلاميذ المسيح ، وأن روح القدس تجلى عليهم ، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة ، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلاً ، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر ، وهم : بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ، وأندراوس ، وفيلبس ، وتوما ، وبرثولماس ، ومتى ، ويعقوب بن حلفي ، وسمعان الغيور ، ويهوذا أخو يعقوب ، وأن بطرس وقف وألقى في وسط التلاميذ - الذين بلغوا نحو عشرين ومائة - خطبة وأنهم أمتلئوا جميعاً بروح القدس ، وتكلموا بألسنة غير ألسنتهم .

ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه ، ومات من كذب عليه ، بعد أن كشف كذبه واختلاسه ، هو وامرأته .

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس في زعمه في آخر ذلك السفر أيضاً .

وكذلك نجد في انجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلاً ليبشروا باسمه ، وأنهم عادوا يقولون له : « حتى الشياطين تخضع لنا باسمك ، فقال لهم : رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء ، وهأنذا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب ، وكل قوة العدو ، فلا يضركم شيء ، ولكن لا تفرحوا بهذا لأن الأرواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى ان اسماءكم كتبت في السموات » .

مناقشـــة ادعاء الالهام في سفر الأعمال :

٥٤- ونريد أن نناقش سفر أعمال الرسل وانجيل لوقا في هذا المقام لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل ، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس ، نعم انه ذكر اسماء الحواريين الأحد عشر ، وليس منهم من ينسب اليه كتب أو رسائل ، سوى متى وبطرس ، ويوحنا ويعقوب ويهوذا .

وقد علمت بعض ما في نسبة انجيل متى ويوحنا اليهما . وأما بطرس والباقون فلهم رسائل ، ولم يكن معترفاً بصحتها هي ورسائل يوحنا الى سنة ٣٦٤ حتى أن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها الى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

واذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة ، ولم يذكر كذلك انجيل لوقا اسماء ، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف اسماؤهم ؟ نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص ، ويوصفون بأنهم رسل ، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة ، أم ليسوا منهم ، ومن المؤكد أن

بولس لم يكن في العدد الذي ذكر في الأعمال ، ولا في العدد الذي ذكر في انجيل لوقا .

اذن لا مقنع فيما جاء في سفر الأعمال ، ولا في انجيل لوقا ، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم . ثم من هو مؤلف سفر الأعمال ؟ قالوا انه لوقا صاحب الانجيل . اذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين ، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل أنه مصور ، أو هو طبيب مصور . فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه ؟ لم يثبت شيء من ذلك ، وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس ، واذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعاين ، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح ، أو تلاميذ المسيح .

الرســـل غير معروفيـــن :

٥٥- لم نعرف اذن حقيقة هؤلاء الرسل ، ومن هم بسند صحيح ، فضلاً عن أن يكون السند قطعياً ، واذا كنا لا نعرف من هم ، فكيف نؤمن لهم بمعجزات ؟ ان المصدر الذي ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذي ذكر الرسل من غير أن يبين من هم ، وهو راو لم يعاين ولم يشاهد . وعلى ذلك يكون الكلام في الالهام ، وأنهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه ، والاطمئنان اليه ، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه .

ولكنا لا نكاد ننتهي الى النتيجة حتى نجد من مجادلي القوم ، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه ، صاحب سفر الأعمال ، وصاحب الانجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج الى سند ، لأن كل كلامه من الروح القدس الذي ملأه كما ملأ اخوانه الرسل ، ولكن

أين معجزته التي تثبت الهامه حتى نصدق كل ما جاء في كتابيه ، ويؤمن مؤمن (يحترم الايمان) بكل ما اشتملا عليه ؟ لم يرد عندهم أي شيء يدل على الهام لوقا ، وأنه كان من العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته ، وامتلئوا بروح القدس في زعمه ، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح (كما ذكر في انجيله) واخضعوا الأرواح ، وأخبرهم أن أسماءهم كتبت في السماء .

ولسنا في ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا الهام لوقا ، لنصدق بأخباره عن الرسل وأعمالهم وعن الهامهم ، وامتلائهم بالروح القدس ، واعجازهم . لا يوجد أمامنا أي دليل يثبتون به الهام لوقا فيما كتب ، حتى كنا نصدقه في كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس ، وامتلئوا به ، وان كنا لا نعرف أشخاصهم ، ولا شيئاً عن أسمائهم وأعمالهم .

بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين ، وأن انجيله لم يكن الهامياً ، وبالأولى رسالته لم تكن بالهام ، فقد قال من المحدثين ، واطسن في المجلد الرابع من كتابه الالهام ما ترجمته : « ان عدم كون تحرير لوقا الهامياً يظهر مما كتب في ديباجة انجيله ونصها :

اذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً اذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق ان أكتب على التوالي اليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » .

وبمثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بالهامي قال العلماء الأقدمون من المسيحيين ، فيقول أرينوس : « ان الأشياء تعلمها من بلغها الينا » .

لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهماً :

٥٦- لم يكن اذن لوقا ملهماً ، لأنه لا يوجد دليل يثبت الهامه ، ولأن مقدمة انجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهماً ، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهماً فيما كتب ، بل كتب ما تعلم ، ولقن ، لا ما أوحى اليه به وألهم .

واذا كانت رسالة الأعمال هي المصدر المثبت لالهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس ، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه ، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح ، ولأن لوقا لم يكن ملهماً . وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند الى لوقا ، وفي تلك الصحة كلام سنثبته في موضعه من بحثنا ان شاء الله .

ليس عندنا اذن دليل نقلي عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلاً ، ويثبت معهم أنهم كتبوا بالالهام ، حتى يعتبر كلامهم وحياً أوحى به ، ويجب تصديقه وقبوله ، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها ، بل ان راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدعون لأنفسهم أنهم رسل ، ما عدا رسائل بولس ، ولم يكن من تلاميذ المسيح الأحد عشر بالاجماع ، ولا من تلاميذه العشرين والمائة ، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا .

وقد رأينا بطرس في رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح ، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله . ولا نجد في عباراتهم ما يدل على انهم كتبوا ما كتبوا بالالهام ، إلا رسائل بولس ، فهو الذي يذكر في رسائله أنه يتكلم عن الله ، وأحياناً يقول أنه يتكلم من نفسه .

واذن فلنا أن نقول أن اصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والالهام إلا بولس الذي كانت صلته بالمسيحية على ما

علمتم ، وليس في كتبها ما يشهد له بالرسالة والالهام ، بله الايمان إلا سفر الأعمال ، وقد علمت قوة الاستدلال به ، والاعتماد عليه في الاحتجاج والاثبات .

دعوى الالهام ليست محل اجماع المسيحيين :

٥٧- وفي الحق ان دعوى الهام الرسل في كل ما كتبوا لم تكن محل اجماع من كتاب المسيحيين في القديم والحديث ، فطائفة من علماء انجلترا قالوا في مؤلف كتبوه[١] ان الذين قالوا ان كل قول مندرج في الكتب المقدسة الهامي لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة ، ثم قالوا : « ان سألنا أحد على سبيل التحقيق أي جزء تعتبرون من العهد الجديد الهامياً ، قلنا المسائل ، والأحكام ، والأخبار بالحوادث الآتية التي هي أصل الملة المسيحية – لا ينفك الالهام عنها . وأما الحالات الأخرى فكان حفظ الحواريين كافياً لبيانها » .

وترى من هذا أن بعض العلماء لا يرون أن كل ما في كتب العهد الجديد الهامي ، بل منه الالهامي وغير الالهامي .

ولكن هناك من يقول : انه يشك في أصل الالهام فيها ، فهذا عالم مسيحي يقال له ريس يقول ناقلاً حاكياً بعض أقوال المتقدمين : « ان الناس قد تكلموا في كون الكتب المقدسة الهامية ، وقالوا انه يوجد في أفعال مؤلفي هذه الكتب وأقوالهم أغلاط ، واختلافات ، فمثلاً اذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الاصحاح العاشر من متى ، و ١١ من الاصحاح الثالث عشر من انجيل مرقس اذا قوبلت هذه الآيات بالآيات الست التي في سفر الأعمال في اصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختلاف جلياً . وقيل أيضاً ان الحواريين ما كان يرى بعضهم بعضاً

(١) اليسائي كلوبيديا برتنبيكا .

صاحب وحي ، كما يظهر هذا من مباحثهم في محفل أورشليم ، ومن الزام بولس لبطرس ، وقيل أيضاً أن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزهين عن الخطأ ، لأنهم في بعض الأوقات تعرضوا له » .

ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الالهام في شيء فانجيل متى على قول القدماء من المسيحيين ، وقول جمهور المتأخرين الذين قالوا انه كتب باللسان العبراني كما أسلفنا من القول ، قد قالوا أن أصله فقد ، وترجمته ليست بالالهام .

ويقول استادلن وغيره أن انجيل يوحنا ليس بالهام ، وجميع رسائل يوحنا ليست بالهام على رأي فرقة لوجين ، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس ، ورسالة يهوذا ، ورسالة يعقوب ، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ، ورؤياه النهوى — كل ذلك عند الأكثرين ليس بالهام ، وكان كذلك الى سنة ٣٩٣ ميلادية » .

دعوى الالهام باطلة ممن يدعيها :

٥٨— ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها ، وطريق الالهام ، فادعاء الالهام على فرض اتفاقهم عليه ليس له من البينات ما يثبته ، ولا من الأدلة ما يقيم ادعاءه ، ونحن نطالبهم بالدليل .

وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعاً مجرداً ، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه ، ولكن تتميماً للبحث وتعريفاً للحقائق نثبت أن دعوى الالهام باطلة من أساسها ، ليس لعدم أقامة الدليل عليها ، بل لأن البينات قائمة ضدها ، ذلك لأنها لو كانت بالهام من الله كما يقولون لكانت صادقة في كل ما أخبرت به ، وما وجد الباطل منفذاً ينفذ منه اليها ، ولم يكن ثمة محل لتكذيبها ، ولكانت متفقة غير مختلفة ، ولم تكن

متضاربة بأي نوع من أنواع التضارب ، وذلك لوحدة من صدرت عنه ، لأنها جميعاً صادرة عن واحد ، وان اختلف الناطقون بها ، ولكنا وجدنا بينها اختلافات من أوجه عدة ، ووجدنا فيها أخباراً تناقض ما علم في التاريخ وكان مشهوراً فيه ، ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .

التضارب بين كتب العهد الجديد :

(أ) أول ما يلقاك من أوجه اختلاف الأناجيل في الأمر الواحد الذي لا يقبل إلا حقيقة واحدة . اختلاف انجيل متى عن انجيل لوقا في نسب المسيح ، فان من يقابل بين نسب يوسف النجار متبني المسيح في الأناجيل يجد الاختلاف من ستة أوجه ذكرها الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه اظهار الحق فقال :

١- في متى أن يوسف بن يعقوب ، وفي لوقا أنه ابن هالي .
٢- يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام ، ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داود .
٣- يعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود الى جلاء بابل سلاطين مشهورون ، ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان .
٤- يعلم من متى أن سلتاثيل بن بكينا ، ومن لوقا ان سلتاثيل ابن نيري .
٥- يعلم من متى أن اسم ابن زربايل أبيهود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا .

والعجب أن أسماء بني زربايل مكتوبة في الباب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام من كتب العهد القديم . وليس فيها أبيهود ولا ريسا فكل منهما غلط .

٦- من داود الى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلاً على ما بين متى ، وواحد وأربعون جيلاً على ما ذكر لوقا .

هذه أوجه اختلاف ستة في نسب المسيح عليه السلام وهو نسب يوسف النجار ، الذي كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف الذي يعترف به المسيحيون ، ولا يجدون مناصاً من الاقرار به يدل على أمرين :

احدهما : أن أحد الانجلين لم يكن بالهام بيقين ، اذا فرضنا أن أحدهما صادق والآخر كاذب ، فالكاذب لا شك لم يكن بالهام ، وإلا كان الاله الذي أوحى به كاذباً ، وذلك لا يليق بحسب بداهة العقل ، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين ، حتى يثبت الصحيح ، ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر ، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة الهاماً ، لأن الشك ان اعترى الأصل زال الاعتقاد .

ثانيهما : أن انجيل متى لم يكن معروفاً للوقا ، أي أنه لم يكن متدارساً معروفاً لدى العلماء في المسيحية . مع أن تدوين انجيل متى يسبق تدوين انجيل لوقا بأكثر من عشرين سنة على ما عليه جمهورهم ، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه ، وما وقع في الخطأ الذي وقع فيه ، أو على الأقل ما خالفه ، واذا لم يكن معروفاً لدى علماء المسيحية ، وحوارييها ورسلها ، فلابد أنه لم يكن معروفاً قط ، أو بعبارة أصرح ، ربما لم يكن موجوداً قط .

ولا مناص من هذا إلا أن نقول ان لوقا كان يعرفه ، واطلع على حديث النسب فيه ، وخالفه على بينة منه ، لأنه لم يصدقه ، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفاً برسالة متى ، والايحاء اليه ، وأن ما كتبه لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه والا ما خالفه مع علمه .

وخلاصة القول في ذلك أن تلك المخالفة تنتج احدى اثنتين : ما ألا يكون انجيل متى معروفاً للرسول لوقا ، وذلك يقتضي ألا يكون موجوداً . واما أن يكون موجوداً يعرفه لوقا ، ولكن لا يعترف به مصدراً صادق الرواية . واحدى القضيتين لازمة حتماً ، ولكن لا يعترف المسيحيون بكلتيهما .

(ب) ونجد في الاصحاح الخامس عشر من انجيل متى أنه بعد مناقشة الفريسيين تقدمت اليه امرأة ، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شفاءها ، ونص الخبر كما جاء في ذلك الاصحاح : « ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف الى نواحي صور صيداء . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمني يا سيدي يا ابن داود ، ابنتي مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا . وتجيء هذه القصة في الاصحاح الثامن من انجيل مرقص بالنص الآتي : « ثم قام من هناك ، ومضى الى تخوم صور وصيداء ، ودخل بيتاً وهو يريد الا يعلم به أحد ، فلم يقدر ان يختفي لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به ، فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أممية وفي جنسيتها فينيقية سورية » .

ففي هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية ، وأنها أممية ليست من اليهود ، وفي الأولى توصف بأنها كنعانية أي ليست فينيقية ، فأيهما الأحرى بالقبول ؟ لا شك أنه لا يمكن أن تكون الروايتان صادقتين معاً ، بل لابد أن تكون احداهما كاذبة وليست بالهام من الله ، لأن الله لا يكذب ، واذا كانت احداهما ليست صادقة بيقين ، وكاذبة بيقين ، ولم يدر أيتهما الكاذبة المفتراة ، فالشك اذن ملازم الاثنتين لا ينفصل عنهما ، حتى نتبين الصدق من الكذب ، ولا سبيل الى ذلك ، ولا يمكن

أن نثبت لأيهما الهاماً مع هذا الشك الملازم الذي لا سبيل الى ازالته .

(جـ) وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته في متى عن يوحنا ، ففي متى جاء في ذلك بالاصحاح السادس والعشرين ما نصه : وفيما هو يتكلم ، واذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ، ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً : « الذي أقبله هو أمسكوه فللوقت تقدم الى يسوع ؟ وقال السلام يا سيدي وقبله ، فقال يسوع يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا ، وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه » هذا ما جاء في متى ، وجاء في يوحنا في هذا المقام ما نصه : « فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع ، وهو عالم بكل ما يأتي ، وقال لهم : من تطلبون ؟ أجابوه : يسوع الناصري ، قال لهم : اني أنا هو ، وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم ، فلما قال لهم اني أنا هو رجعوا الى الوراء وسقطوا على الأرض ، فسألهم أيضاً من تطلبون ؟ فقالوا يسوع الناصري ، أجاب يسوع قد قلت لكم : أني أنا هو ، فان كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون ليتم القول الذي قاله : ان الذين أعطيتني لم أهلك أحداً » .

وترى هنا اختلافاً بيناً بين الروايتين ، فمتى يقول : ان يهوذا هو الذي أعلمهم بالمسيح بالعلامة التي اتفق معهم عليها ، وهي تقبيله ، ويوحنا يقول : ان المسيح هو الذي قدم نفسه وكفى يهوذا مئونة التعريف ، ولا شك ان ذلك الاختلاف البين في رواية حادثة واحدة يجعل احدى الروايتين كاذبة والثانية صادقة ، والكاذبة ليست بالهام ، فاحداهما ليست بالهام ، ولا سبيل الى معرفتها فيثبت الشك في الروايتين .

وفي الحق ان من يراجع الأناجيل في خبرها عن القبض على المسيح

وحبسه ، ثم محاكمته وصلبه في زعم النصارى . ثم قيامته من قبره ، يجد الاختلاف في أخبارها اختلافاً بيناً ، ولو كان بعض هذا الاختلاف في شهادة اثنين يشهدان في درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى ، ولا انتصر بها حق .

ولتراجع الأناجيل في هذا المقام لتعرف مقدار الصحة في خبرها ، ولتعرف مقدار ما في دعوى الالهام لكاتبيها عند كتابتها من حق ، فلاشك أن ذلك الاختلاف الذي لا يمكن التوفيق بين متناقضه يؤدي الى أن تلك الأناجيل يأتيها الشك من كل جانب ، يأتيها من بين يديها ، ومن خلفها ، فلا يمكن أن تكون الهاماً من حكيم حميد .

وان ذلك الاختلاف . فيما أحاط بمسألة الصلب ، فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل ، هو أيضاً يجعل خبر الصلب عند القارىء الخالي الذهن الذي لم يكن في ذهنه قبل القراءة ما ينفيه أو يثبته موضع الشك الذي يرجح فيه الرد على القبول ، والتكذيب على التصديق .

(د) وفي موت يهوذا الذي خان المسيح على زعمهم ، اختلفت رواية متى عن رواية لوقا في سفر أعمال الرسل . فمتى يقول : انه خنق نفسه ومات ، كما جاء في الاصحاح السابع والعشرين .

ولوقا يقول في سفر الأعمال : انه خر على وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت احشاؤه كلها ومات .

ولا شك أن بين الروايتين اختلافاً ، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن ، ولابد أن تكون احداهما على الأقل كاذبة . ولكنها غير معلومة ، فيتطرق الشك الى الأخرى فيردان معاً ، ولا يمكن أن تكونا بالهام أو لا يمكن مع ذلك الشك الايمان بأن كلتيهما بالهام .

(هـ) قد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت

معلومة مشهورة في التاريخ يعرفها الخاص والعام ، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة في الدهر ، ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ ، ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب .

هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ، واذا حجاب الهيكل قد انشق الى اثنين من فوق الى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين . وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة ، وما كان ، خافوا جداً ، وقالوا : حقاً كان هذا ابن الله » .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذي لم يشر الى المسيح بكلمة ، ولو صحت أيضاً لآمن الرومان واليهود ، الصخور تتشقق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينشرون ، ويسيرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ، ويبقى بعد ذلك مساغ لانكار ، ولكن لم ترد أخبار بايمان أحد من اليهود على أثر تلك البينات الباهرات .

ولقد جزم العلامة المسيحي نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال في تكذيبها : « هذه الحكاية كاذبة والغالب ان أمثال هذه الحكاية كانت رائجة في اليهود بعد خراب أورشليم ، فلعل أحداً كتب هذه الحكاية في النسخة العبرانية ، وأدخلها الكتاب في المتن ، وهذا المتن في يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيراً مما في المتن أصله في الحاشية ثم نقل خطأً في المتن ، واذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم ، وايمان بدين ، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب

بحواشيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأُصيل ، هو بالهام من الله العلي القدير ؟! ولكن في العالم عقول تقبل ذلك .

بيد أنه من الانصاف لهذه العقول ان نقول : انهم يقيمون غواشي تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيها فهي لا تقبله على نور وبينة ، وسلطان مبين .

٥٩- هذه بعض المتناقضات بين هذه الكتب بعضها مع بعض وبعض مناقضتها للعقل والمدون في التاريخ ، وانا نحيل القارىء في هذا المقام الى كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي : فقد أتى بأكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب ، وجبه بها مناظريه ، فلم يحيروا جواباً ، ولم يستطيعوا خطاباً ، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها منه فليرجع القارىء اليه ، فسيجد الغريب .

التناقض بينها مبطل لادعاء الالهام وبيان انكارهم لبعضها ثم اعترافهم بــه :

واذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها في جملتها واجزائها عند مناقشتها فهي اذن ليست بالهام ، ويكفي هذا بطلاناً لمدعاهم في الالهام .

وان نسبة هذه الكتب الى من نسبت اليهم على ما فيها ، وعلى أنها في ذاتها ليست حجة ، هي موضع شك كثير ، فانه ليس لهم سند متصل يصل هذه الكتب في أقدم العصور التي عرفت فيها - بالكاتبين لها ، فهي لم تعرف معرفة كاملة قبل مجمع نيقية الذي كان في سنة ٣٢٥ ، ولم يجيء ذكر لها قبل ذلك إلا على لسان أرينيوس سنة ٢٠٠ وكليمنس سنة ٢١٦ .

بل ان مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها ، فان ذلك المجمع لم يعترف بما يأتي :

١- برسالة بولس الى العبرانيين .

٢- ورسالة بطرس الثانية .

٣ ، ٤- ورسالة يوحنا الثانية والثالثة .

٥- ورسالة يعقوب .

٦- ورسالة يهوذا .

٧- ورؤيا يوحنا التي تسمى « الكتاب النبوي » ولم يحكم بصحة هذه الكتب إلا في مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤ .

انقطاع السند في نسبتها لكاتبيها :

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع ، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس . وآخر كتاب من هذه الكتب كتب في القرن الأول ، فبين آخر كتبهم تدويناً في زعمهم ، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين لا راوي يرويها ، وقد وقع بهم من الأحداث في هذه المدة ما يذهب باللب ويضيع الرشد ، وينسى المرء معه كل شيء ، وان الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد . فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة ٣٠٣ أمراً بهدم الكنائس ، واحراق الكتب ، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم ، فنفذ الولاة الأمر ، فهدموا الكنائس ، وحرقوا الكتب ، وأتوا على كل ما للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب ، هدماً وتحريقاً ، ومن سبق الى ظنهم أنه أخفى كتاباً عذبوه عذاباً شديداً ، حتى يعلنه فيحرق .

ومن قبل ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم ، فما تركوا عالماً منهم بالديانة إلا قتلوه ، وكان الولاة يتفننون في طرق ابادة المسيحية من الوجود ، أبادوا

العلماء حتى لا يوجد من يرشد اليها ، ويتوارث العلم بها . وأبادوا الكتب حتى لا تحفظ تلك الديانة في الصدور أو السطور .

ولا شك أن ذلك الاضطهاد الذي دام الى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التي رويت قبل ذلك موضع شك في نسبتها الى قائليها ، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة ، ولم يقيموا أي دليل ، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب اليهم ، والحبل بينهم وبينها غير متصل بأوهى أنواع الاتصال ، لأن السند المتصل الذي يطمئن معه القارىء لكتاب ، فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن نسب اليه ، هو أن يروى ثقة عن ثقة مثله ، حتى يصل السند الى من لقى المؤلف فيقول : سمعته منه ، أو تلقيته عنه ، أو قرأته عليه كما ترى في أحاديث رسول الله ﷺ . ويكون كل راو من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلاً ثقة ، ضابطاً حافظاً ، واذا كان السند غير متصل بين ذيوع هذه الكتب واشتهارها ، وبين قائليها ، فقد ذاعت بعد سنة ٣٦٤ ، ومن نسبت اليهم كتابتها كانوا في وسط وآخر القرن الأول ، فالعقل يتشكك في هذه النسبة ، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة .

هذه كتبهم ، اعتقدوا أنها كتبت بالهام من كتابها ، ولم يقيموا أي دليل على دعوى الالهام ، وبدراستها يتبين التناقض بينها ، مما يثبت أنها ليست بالهام من الله ، وبدراسة تاريخها يثبت أنها منقطعة السند عمن نسبت اليهم .

موازنة قس بين أحاديث الرسول ﷺ وكتبهم من حيث الرواية :

٦٠– ولقد جرؤ قس اسمه إبراهيم سعيد في شرحه لانجيل لوقا ، فعقد موازنة بين روايته ، ورواية أحاديث رسول الله ﷺ ، فقال : « ان الذي يطالع ديباجة بشارة لوقا يستعيد الى ذاكرته ديباجة الأحاديث في

الإسلام ، غير أنه اذا تشابهت الديباجتان في بعض الأوجه ، فان أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه ، فمن أوجه الشبه :

أ) أن بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة ، وأقوال مؤسس لدين واسع الانتشار .

ب) ان الذين كتبوها أخذوها عن أقوال مسلمة اليهم .

الى هنا فقط تنتهي أوجه الشبه ، أو تبتدىء زاوية الانفراج تتسع الى أن تختفي خطوطها مع رسوم الأبد .

أ) فالأحاديث النبوية كتبها اناس أخذوها عن أناس آخرين ، وهؤلاء الآخرون أخذوها عن التابعين ، وهؤلاء أخذوها عن الصحابة ، والتبر متى تنقل بين الأيدي الكثيرة امتزج بكثير من التراب ، ان لم يتحول تراباً ، ولكن لوقا أخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح ، وخدموا انجيله .

ب) نقلت الأحاديث النبوية عن رواة ، وما آفة الأخبار إلا رواتها ، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

ج) كانت مهمة كتبة سيرة نبي الإسلام جمع الأحاديث وتكديسها ، لكي يظفروا بأكبر عدد ممكن ، وكانت مهمة لوقا التمحيص العلمي إذ كان هو طبيباً عملياً ، علمياً دقيقاً .

بيـــان ما في كلامــه من زيــف :

٦١- هذا نص ما كتبه ذلك القس في الموازنة بين أحاديث الرسول ﷺ وانجيل لوقا ، ونحن نقره في أنَ أوجه الاختلاف تنفرج زاويتها ، حتى لا يتلاقى المتشابهان بعدها ، وان شئت الحق الخالص من كل تمويه ، والصدق الخالي من كل تزوير فقل انه لا تشابه بينهما ، كخطين متوازيين لم يتلاقيا ، ولن يتلاقيا قط .

ولكن أذلك الاختلاف يعلي الأحاديث أم يعلي البشارة المنسوبة للوقا ؟ هنا نختلف مع القس ، فهو يزعم أن ذلك الاختلاف يعلي بشارة لوقا ، ويفقد الثقة أحاديث الرسول ، وهو لكي يؤيد هذا الزعم يأتي بالمحاسن فيسميها مساوىء ، ويعرض لما يوجب الثقة ، فيزعمه دليل نقيضها ، وهو في هذا كمن يزعم قبح الشمس في نورها الرائع ، وضوئها الساطع ، وقبح القمر في صفائه ، وانبلاجه في ظلمة الليل البهيم ، ثم يستعين في تقبيح المحاسن الى التشبيهات والأخيلة والرموز ، كشأن المموهين دائماً ، عندما يحاولون طمس المعقول ورد المقبول . ومعارضة ما تنتجه بدائة العقول ، والمنطق المستقيم .

يقول ان الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا الى التابعين ، فالصحابة ، وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا ، ويرى أن رواية بشارة لوقا هي المثلى ، ورواية الأحاديث ليست المثلى . ويستدل على ذلك بأن التبر متى تنقل بين الأيدي أمتزج بالتراب أو تحول الى تراب ، فأي دليل هذا ؟ ومن أي أبواب الأقيسة المنطقية ، ومن أي أشكالها ؟ ان ذلك ليس من المنطق في شيء ، ولا يمت اليه بنسب ، بل لا نستطيع أن نقول ان ذلك قياس خطابي ، لأن الأقيسة الخطابية ، وان كانت ظنية لا تناقض العقل ، ولا تكذب على البدائة ، ولكنا مع ذلك نناقش ذلك الاستدلال .

ان أحاديث الرسول رويت بسند متصل ، وذلك عيبها في زعم هذا الكاتب ، وبشارة لوقا لم ترو بسند متصل ، وذلك حسنها ، واذا قال لك قائل : اين ما تثبت به أنه روي عن شهود عاينوا ، ومن هم هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه ؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين ، وهم أولى بذلك ، وكلامهم أحرى بالتصديق ؟ فلا جواب عنده بلا ريب .

فأيتها العقول المستقيمة ، أي الخبرين أحرى بالقبول ، خبر من ذكر

أنه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق والتقوى ، وعينه ، وعدالته مشهورة ، وصدقه معروف . أم خبر من ذكر لك أنه روي عمن عاين ولم يبين من هو ، ولم يخبر عنه ؟ فلم نعرف أهو ثقة مقبول الرواية أم هو غير ثقة كيهوذا الأسخريوطي ؟ ان اقصى ما يقال هو أن لوقا نقل عن بولس ، لأنه كان رفيقاً له في بعض أسفاره ، ولكن بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا بل كان في صدر حياته حرباً عليهم والباً ، اذاقهم البلاء أكوُساً ، والشر ألواناً ، فهو راو يحتاج الى من يوثقه ، ان ادعى أن لوقا روى عنه ، وذلك ما لم يقله حضرة القس .

ولننتقل الى مناقشة تشبيه الذي ذكره دليلاً : ان التبر اذا انتقل الى أيد تستطيع صيانته وحياطته — تحفظه من التراب ، وتصونه من الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخالط جوهره ، فيزداد بهذا الحفظ بريقاً وصفاء ، ان أحاديث الرسول ﷺ نقلها ثقات صانوها وحفظوها ، ولكن يظهر أن القس يأبى في مناقشته إلا أن يخالف كل معقول ، حتى يكون كل كلامه متفقاً مع الباعث عليه والداعي اليه ، فيزعم أن التبر قد يتحول الى تراب اذا تناقلته الأيدي .

فأيها الناس ، ويأيها العرب والعجم ، ويأيها الغرب ، هل علمتم أن الذهب يتحول الى تراب ، ولكن القس المرشد الرشيد يقول ذلك فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة .

ثم من الذي روى لنا تلك البشارة عن لوقا ؟ ان السند يجب أن يكون معروفاً حتى لوقا ، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح ، ان بشارة لوقا كتبت كما يزعم النصارى في العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعييناً دقيقاً ، ولكن لم يرد في التاريخ ، ولا على ألسنة الرؤساء والقسيسين أي ذكر لها الى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ الى سنة ٣٢٥ ، ولم نعرف

أهذه الأناجيل المدونة المسطورة الآن هي التي جاء ذكرها على لسان عالمين من علمائهم في فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون سنة ومائة ، وهي فترة طويلة .

ولكن مع كل هذا يستحسن القس إبراهيم سعيد تلك الحال ، فقد زينت له فرآها الأمر الحسن الجدير بالثقة . ورأى غيرها الأمر القبيح الجدير بالرد . وهل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه في ضوء الشمس . أو نطالب من فقد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر ، وعرف الطيب ، أو نطالب من أيفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور .

٦٢- ولننتقل الى الفرق الثاني الذي ذكره معلياً لبشارته ، ومنزلاً بأحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : نقلت الأحاديث عن طريق رواة ، وما آفة الأخبار إلا رواتها ، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

هذا ما ذكره بنصه تقريباً ، وهو يبين أرجحية أخبار أناجيله عن سيرة المسيح بأنها رواها التاريخ ، أما عن السنة فرواية رواة ، وآفة الأخبار رواتها ، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامية التافهة « آفة الأخبار رواتها » فانها لا تصلح مقدمة لدليل علمي ، ولو أن طالباً ممن تلقوا العلم علينا قالها لعركنا أذنه وأسررنا اليه أن رواة الأخبار الذين هم آفاتها إنما هم الكاذبون . أما الصادقون العادلون ، فليسوا آفاتها بل حملتها ، وإلا ما صحت شهادة ، ولا قبل القضاء بينات ، ولا ثبتت حقوق ، ولا أدين متهم ، ولا برىء بريء .

ثم يقول ان اناجيله سجلها مؤرخون محققون ، فكيف نسميهم ؟ أرواة رووا عن غيرهم ؟ ان كانوا كذلك ، فقد سجل على سيرته ما عده قبيحاً عند غيره ، وان كانوا مؤرخين لم يتعرفوه بطريق الرواية ، بل بالنقش

على الأحجار ، أو فيما استبطنته بطون الآثار ، فأي أثر هذا وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه ، ومدونة فيه ، وأثبت التحقيق العلمي أنها ترجع الى عصر المسيح ، وأنه هو الذي ألقاها ، أو أن تلاميذه دونوها عنه ؟ .

إن أخبار التاريخ تثبت بأحد أمرين ، أما بالرواة يروون ، أو بالآثار ينقبون فيها ، ويتعرفونها منها ، لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين ، فليست ثمة رواية لها ولا رواة ، وهم ينزهونها عن ذلك ، ولا آثار تنطق بها ، وتعلن خبرها فهي أذن يرفضها التاريخ ، ولا يمكن أن يسجلها مؤرخون محققون قط ، وان التاريخ لا يعرف لها ذكراً إلا من مجمع نيقية أو بعده . فهي مسندة الى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا في نيقية ، وليست محققة النسبة لغيرهم بل بعضها ليس محقق النسبة عندهم ، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة ؟؟ وبعد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم ، وان اغضب ذلك حضرة القس ، وان ذلك المجمع لنا فيه كلام ، سنقوله في موضعه .

٦٣- ولننتقل الى مناقشة الفرق الثالث الذي ظنه رافعاً مؤرخيه الى مرتبة الثقة ، يقول : كما كانت مهمة كتبة سيرة النبي ﷺ الجمع ، ليظفروا بأكبر عدد من الأحاديث . أما مهمة لوقا ، فقد كانت التحقيق والتمحيص ، وهنا نرى القس أخذ يجد بعد الهزل ، ويقول بعد الهذر ، ولكنه اذ ابتدأ بجد قد كذب وأعظم الفرية على أحاديث نبينا ، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها ، فأي تحقيق علمي فيها ، وأي تمحيص اشتملت عليه ؟ انها لا تفترق عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة ، وأشياء عجيبة ، ولم يبين لنا رأيه فيها ، بل كان قاصاً ككل القصاص ، ولا يرفعها انه كان طبيباً ، لأن نسبتها اليه موضع شك كبير ، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا ، ولم يتفقوا على أنه كان طبيباً ، بل منهم من قال انه كان مصوراً ، وعلى ذلك تكون دعواه

التمحيص في بشارة لوقا لا تؤيدها ما دون فيها ، ولا تؤيدها نسبتها الى لوقا .

ولننتقل بعد ذلك الى رد افترائه ، وكذبه على أحاديث النبي ﷺ ، فان المطلع على أخبار رواتها العدول ، وما كتب في صحاحهم يتبين له أنهم ما كان همهم الجمع ، بل كان همهم التنقيب والبحث ، فأنهم ما كانوا يروون كل ما يتلقون ، بل يختارون الصادق بما يتلقون ، وان الذي يرفضون كان أضعاف ما يقبلون وينقلون ، لأنهم كانوا يتحرون الصدق ليتميز الخبيث من الطيب ، وان الصحابة كانوا يتهمون من يكثر من الرواية خشية أن يخبر عن الرسول بغير ما رأى وشاهد ، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم ، أو محرفاً الكلم عن مواضعه : « ان رواة الأحاديث كان همهم الجمع » ، كلا انهم كانوا ينقدون ما يروون ، ينقدون السند أولاً ، فلا يقبلون إلا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم لما يحملون ويروون ، وينقدون متن الحديث : فيعرضونه على الكتاب وما أشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار ، وما علم من هذا الدين بالضرورة : فان لم يخالفها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولاً ، وإلا كان مردوداً ، ونريد أن نهمس في أذن حضرة القس الرشيد بأن من أسباب ردهم لبعض الأحاديث ورفض نسبتها الى الرسول عليه الصلاة والسلام – عدم موافقتها للعقل ، فهل له أن يطبق ذلك النقد على أناجيله ورسائله ؟ انا ننصح له أن يفعل ، لأنا نريد له الهدى ، لا الضلال ، والرشد لا الغي ، وهي نية نحتسبها عند الله .

نظرة في الوحي في الإسلام والوحي في المسيحية :

٦٤– نريد ان نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها : وهي التفرقة بين الوحي في الإسلام والوحي في المسيحية . فيقول عن

الوحي في الإسلام : « أن الوحي في الإسلام هو التجرد عن كل شيء انساني ، وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ ولكن الوحي في المسيحية يجمع بين العنصر البشري والعنصر الإلهي أي الملهمات الآلهية تتجسد في لباس لغوي بشري ، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ اليهم ، فالكلمة المعلنة المكتوبة في الإنجيل هي رمز لكلمة الله ، الوحي المعلن لنا حق الله.

من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحي بالروح القدس لا يحرم على الموحى اليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد ، والتحقيق والتدقيق ، هذا بخلاف الاعلانات المحتوى عليها كتاب الوحي التي لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية ، بل هي من الله أولاً وآخراً ، كالنبوات المتفرقة في كل أجزاء الكتاب المقدس ، وسفر الرؤيا » .

معنـــى الوحـــي :

هذه كلمته ، ونريد قبل أن نتعرف من تلك الكلمة معنى الوحي في كتبهم أن نسارع الى بيان وحي الله لنبيه ﷺ قسمان : قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته ، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله جلت قدرته ، وذلك كما في القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين .

القسم الثاني ، الأمور الشرعية التي كان يوحى الله بها الى النبي ﷺ ليبينها للناس ، فالمعنى فيها بوحي من الله تعالى والعبارة فيها للنبي ﷺ .

واذن فكلامه عن الوحي في الإسلام لم يكن صحيحاً في عمومه ، وكان عليه أن يتحرى قبل أن يكتب ، ولكنه لم يفعل .

ولننتقل الى الوحي بالكتب عندهم ، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به عنه ، وعساه يهدينا الى ما نعرف به محض الحق المبين .

هو يقول ان كلمات الانجيل ليست هي كلمات الروح القدس التي ألهمها رسلهم ، سواء في ذلك كل كتبهم ، فالعبارة فيها للكاتب ، وليست للروح القدس الذي يلهم رسلهم بما يكتبون فيما يزعمون ، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك الى قسمين : قسم هو وحي لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأي نوع من أنواع التصرف ، وهو ما يسمى بالنبوات عندهم . والقسم الثاني تتصرف فيه مواهب الكاتب ، وفي هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجبه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد .

ونظرة فاحصة الى هذا القول ترينا أن الالهام قد أخذ يضؤل أمره ، وتتواضع دعواه ، خصوصاً بالنسبة للأناجيل ، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا ، ولم يتخللها كلام الله ، كما يفعل بولس في رسائله ، اذ كان يزعم أحياناً أنه يتكلم عن الله ، وأحياناً يقول أنه يتكلم من عنده ، فالأناجيل ليست فيها اذن تلك النبوات ، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل في كتابتها ، ويتحملون تبعة الاجتهاد فيها والتدقيق والتمحيص ، ومن يتحمل تبعة عمل ينسب اليه . وعلى ذلك قد يتوارد الخطأ على اجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم ، فيكون من أخبارهم ما صادف التحقيق فيه الصواب ، وما عرض له الخطأ ، وكيف تكون بعد ذلك بالهام أو وحي ؟ وكيف تكون مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ واذن فقد أتوا على دعوى الالهام بالنقض فلا الهام في الأناجيل اذن .

هذه كلمتنا في كتبهم تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون ، ونوجه من النقد ما وجهوا ، وذلك لكي ننصف القوم .

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة ، ونجمع بين الأقوال المتضاربة ، ونشير الى حكم العقل المستقيم عليها ، أهي صالحة

لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم ، أم غير صالحة ؟.

ان كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس ، فاذا كان غير صحيح السند ، أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر ، بل انه انهار ، وفقد أصله ، ولم يعد شيئاً في الأديان مذكوراً .

ولننتقل بعد ذلك الى عقيدة المسيحيين ، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التي علمت أمرها .

النصرانية كما هي عند النصارى وفي كتبهم

العقيـــدة :

٦٥- جاء في كتاب سوسنة سليمان ، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني أن « عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهي أصل الدستور الذي بينه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق ، مولد غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب . وصعد الى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه والايمان بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب ، الذي هو مع الابن يسجد له ، ويمجد ، الناطق بالأنبياء » .

هذا هو جوهر العقيدة ولبها الذي لا اختلاف فيه ، وفي هذا الكلام أبهام يحتاج الى فضل بيان ، وانا مستعينون في توضيحه بما كتبوه هم ، حتى لا نتزيد عليهم بقول ، ولا نفرض عليهم فهمنا ، ولكي نكون صادقي الحكاية لكل أقوالهم من غير أي تحريف ، والذي يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : التثليث والايمان بثلاثة أقانيم .

والعنصر الثاني : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره ، ورفعه .

والعنصر الثالث : أنه يدين الأحياء والأموات .

ولنتكلم عن كل واحدة من هذه العناصر :

عقيـــدة التثليـــث :

٦٦- قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن ، والى الابن الفداء ، والى الروح القدس التطهير » .

ويفهم من هذا أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق .

التـــوراة والتثليـــث :

وقد فسر هذا المعنى القس بوطر في رسالة صغيرة ، سماها الأصول والفروع ، واليك ما جاء فيها : « بعد ما خلق الله العالم ، وتوج خليقته بالانسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدانيته ، كما يتبين ذلك من التوراة ، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها اشارات وراء الوحدانية ، لأنك اذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات :

« كلمة الله ، أو حكمة الله ، أو روح القدس » ولم يعلم من نزلت اليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعاني ، لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذي قصد الله فيه ايضاحها على وجه الكمال والتفصيل ، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة في ضوء الانجيل يقف على المعنى المراد ، اذ يجدها تشير الى أقانيم في اللاهوت . « ثم لما جاء المسيح الى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة في الانجيل أن له نسبة سرية أزلية الى الله ، تفوق الادراك ، ونراه مسمى في أسفار اليهود : « كلمة الله » وهي ذات العبارة

المعلنة في التوراة ، ثم لما صعد الى السماء أرسل روحاً ، ليسكن بين المؤمنين ، وقد تبين أن لهذا الروح أيضاً نسبة أزلية الى الله فائقة ، كما للابن ، ويسمى الروح القدس ، وهو ذات العبارة المعلنة في التوراة كما ذكرنا ، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله في نصوص التوراة هما المسيح ، والروح القدس المذكوران في الانجيل ، فما لمحت اليه التوراة صرح به الانجيل كل التصريح ، وان وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم ، وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية ، بل لابد له أن يعلم أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين في الكمالات الالهية ، وممتازين في الاسم والعمل ، والكلمة والروح القدس اثنان منهم ، ويدعى الأقنوم الأول الآب ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها ، وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية ، ويمثل للأفهام محبته الفائقة ، وحكمته الرائعة ، ويدعى الأقنوم الثاني الكلمة ، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية ، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس ، ويدعى أيضاً الابن ، لأنه يمثل العقل نسبة المحبة ، والوحدة بينه وبين أبيه ، وطاعته الكاملة لمشيئته ، والتمييز بين نسبته هو الى أبيه ، ونسبة كل الأشياء اليه ، ويدعى الأقنوم الثالث الروح القدس ، الدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن ، وعلى عمله في تنوير أرواح البشر ، وحثهم على طاعته » .

الابن لا يعنى به الولادة البشرية :

وبناء على ما تقدم يظهر جلياً ان عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ الى ولادة بشرية ، ولكنها تصف سرية فائقة بين أقنوم وآخر في اللاهوت الواحد ، واذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة في الذات ، والأمانة للمشورة

الآلهية ، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها ، لأجل هذه الايضاحات علم خدام الدين المسيحي واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الالٓهية أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم ، حسب نص الكلمة الأزلية ، ولكل منهم عمل خاص في البشر أ.هـ . بنصه تقريباً .

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات :

أولاها : اثبات أن التوراة وجد فيها أصل التثليث ، لوحت به ولم تصرح ، وأشارت اليه ، ولم توضح .

وثانيها : أن في اللاهوت ثلاثة أقانيم ، وهي في شعبها متغايرة وان كانت في جوهرها غير متغايرة .

وثالثها : أن العلاقة بين الآب والابن ليست ولادة بشرية ، بل هي علاقة المحبة والاتحاد في الجوهر .

ولقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان في قول القس إبراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا ، فقد جاء فيه تفسير معنى كلمة ابن العلى التي جاءت في انجيل لوقا ما نصه : « يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد « بابن العلى » أو « ابن الله » فلم يقصد بها ولادة طبيعية دانية من الله وإلا لقيل ولد الله ، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعاً انهم أبناء الله ، لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامة لله ، ولم يقصد بها تفرقة في المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا في الجوهر ، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله ، وهي محبة متبادلة ، وما المحبة التي بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها ، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها ، ويراد بها اظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا الله ، وأطاع وصاياه ، فقبل الموت موت الصليب ، لذلك يقول الله فيه : « هذا ابني

الحبيب الذي به سررت ، له اسمعوا » وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تمم ارادة الله في الفداء ، ويراد بها اظهار التشابه والتماثل في الذات ، وفي الصفات وفي الجوهر ، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين ، فقيل عن المسيح انه بهاء مجد الله ، ورسم جوهره ، وقال هو عن نفسه : من رآني رأى الآب ، أنا والآب واحد ، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شيء الذي منه وبه له كل الأشياء ، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون أدراكها العقل » .

الثالوث أشخاص متغايرة ، وإن كان وجودها متلازماً :

٦٧- وفي هذا التفسير ، والتفسير الذي سبقه يبدو بجلاء أن شخصية الابن غير الآب ، وكذلك روح القدس ، ولكن هل يدخل في الأقنوم الثاني جسده وروحه ؟ جاء في كتاب خلاصة تاريخ المسيحية في مصر : « كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت أيمانها من كيرلس وديسقوروس ، ومعها الكنائس : الحبشية ، والأرمنية والسريانية والارثوذكسية تعتقد أن ذات الله واحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس ، وأن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة » .

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثاني طبيعتين ومشيئتين ، ومن هذا نرى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث ، وهذا هو موضع اتفاق . ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الالهي في المسيح ، أهو الجسد الذي تكون من الروح القدس

ومن مريم العذراء الذي باختلاطه بالعنصر الآلهي صار طبيعة واحدة ومشيئة واحدة أم أن الأقنوم الثاني له طبيعتان ومشيئتان ؟ .

٦٨- ومن هذا كله يفهم أن المسيحيين على اختلافهم يعتقدون أن في اللاهوت ثلاثة يعبدون ، وعباراتهم تفيد بمقتضاها أنهم متغايرون وان اتحدوا في الجوهر والقدم ، والصفات ، والتشابه بينهم كامل ، ولكن كتابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعاً أقانيم لشيء واحد ، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية ، ولكن عند هذه المحاولة تستغلق فكرة التثليث ، وتصير بعيدة عن التصور ، كما هي في ذاتها مستحيلة التصديق ، وان كتابهم أنفسهم يعتقدون أنها بعيدة التصور عند هذه المحاولة ، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث .

فنرى صاحب رسالة الأصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث ، يقول : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل ، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض ، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية » أي أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلى كل الأشياء لها يوم القيامة ، وذلك حق ، فانهم لا يعلمون حقيقتها إلا يوم يحاسبهم الله عليها .

لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث :

ولماذا شغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث ، أو على الأقل يجتهد بعضهم في بيان أنه لا منافاة بينهما ؟ لعل الذي يدفعهم الى ذلك هو اعتبارهم التوراة كتاباً مقدساً عندهم ، وهي تصرح بالتوحيد ، وتدعو اليه ، وتحث عليه ، وتنهى عن الشرك بكل شعبه . وكل أحواله ، بل تدعو الى البراءة من المشركين أينما كانوا ، وحيثما ثقفوا .

فهم يجتهدون أولاً في أن يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه على الاشارة الى التثليث ، كعبارة « كلمة الله » أو عبارة « روح القدس » .

وثانياً : يحاولون أن يرجعوا التثليث الى الوحدانية ، لتلتقي التوراة مع الانجيل فيقربوا التوراة اليهم بتحميل عباراتها ما لا تحتمل ، ويقربوا عقائدهم من التوراة بتضمين ثالوثهم معنى التوحيد ، وان كان هو أيضاً لا يحتمل ذلك ، ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التي كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام ، ووثنية الرومان ، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لا شية فيها ، إلا التجسيد ، أو ما يوهمه في بعض عباراتها .

٦٩– ولقد يجتهد كتاب المسيحية في أثبات أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة ، ويسندونها الى آياتها ، سواء أكانت من كتب العهد القديم ، أم من كتب العهد الجديد ، فيقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « أما الآيات الآلهية التي تثبت لاهوت المسيح فهي كثيرة جداً ، ولضيق المقام نكتفي باقتباس شيء يسير ، فمن أقواله تعالى بلسان أشعياء النبي : « ها العذراء تحبل ، وتلد أبناً ، وتدعو اسمه عمانوئيل (أي الله معنا) » وقوله : « كأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه : ويدعى اسمه عجيباً ، مشيراً الهاً قديراً ، أبا أبدياً رئيس السلام » : أشعياً ٧ : ٩٤ و ٩ : ٦ .

وعند عماده وتجليه على الجبل شهد له الله من السماء بصوت مسموع قائلاً : « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » متى ٣ : ١٨ و ١٧ أ ص ٥ .

ويشهد له يوحنا الرسول قائلاً : في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله .. كل شيء به كان . وبغيره لم يكن شيء

والكلمة صار جسداً ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجداً ، كما للوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً . يوحنا ١ : ١ و ٣ و ٤ .

وقال المسيح نفسه : أنا والآب واحد ، يوحنا ١٠ : ٣٠ ، وقال له أحد تلاميذه : « ربي والهي » يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود . ولم يوبخه على دعوته الهاً ، ولما سأله رئيس الكهنة ، وقال له : أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ أجابه المسيح على الحلف : « أنا هو » قال متى ٢٦ : ٦٣ بمرقس ١٤ : ٦٢ ، وحينما ركب بحر الجليل أظهر طبيعتى لاهوته وناسوته الكليتين ، وذلك بينما كان نائماً هاجت الرياح ، واضطربت الأمواج ، فقام من النوم وأسكتها . فصار هدوء عظيم ، متى ٨ : ٢٣ — ٢٧ فبنومه أظهر ناسوته ، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته » .

ويقول صاحب ذلك الكتاب في أقنوم روح القدس : « ومن حيث أقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله ، لأن أشعياء يقول : « ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه ، فتحول لهم عدواً ، وهو حاربهم »، أشعياء ٦ : ١٠ .

ويقول الرسول بولس : لا تحزنوا روح الله القدس ، ومن المعلوم أنه ان كان للروح قوة ، أو صفة ، أو شيء من الأشياء غير العاقلة لا يمكن أن يحزن ، أو يفرح أبداً : فلابد أن يكون أقنوماً .

ثم نقرأ في سفر الأعمال أن الروح قال للرسول : « أفرزوا الى برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما اليه » .

وهكذا يسترسل في أمثال هذا الاستدلال الى أن يقول : « وقيل عن أعمال الله أنها أعمال الروح هو الذي خلق العالم ، ويجدد النفوس ، والمولود منا مولود من الله ، ويحيى أجسادنا الميتة ، وهو على كل شيء قدير » .

وفضلاً عما ذكر نجد في الكتاب أن الحقوق والصفات الآلهية تنسب على سواء الى كل من الآب والابن والروح القدس .

ولكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون ، كما نرى في دستورية المعمودية : « عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس » ، متى ١٨ : ١٩ ، « والبركة الرسولية نعمة ربنا يسوع المسيح ، ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم » .

٧٠- هذه هي استدلالاتهم من كتبهم لاثبات عقيدة التثليث ، والابراء عليها ، وأثبات سندها من تلك الكتب ، قد أطلنا في نقلها عنهم ، واقتطعناها من عباراتهمَ بنصها ، ولم نتصرف فيها بأي نوع من أنواع التصرف في البيان خشية التزيد عليهم ، وخشية أن يؤدي التصرف في التعبير الى التغيير في الفكرة ، وترى أنهم لم يعتمدوا في أثبات تلك العقيدة على أي دليل عقلي ، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحملونه من أثقال المعاني ما تنوء به العبارات ، ولا تحتمله أبعد الاشارات ، وأنهم اذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها في تصوره ، ويحسون أن العقل لا يكاد يستسيغ ذلك التصور ، وقد نقلنا لك من عبارتهم ما يفيد ذلك ، فأرجع اليه .

واذا كانت محاولاتهم تصوير القضية قد اجهدتهم ، وكلفتهم ما لا يطيقون ، فكيف يستطيعون أن يجعلوا من بداءة العقل ما يحملنا على تصديق ما يدعون والاقتناع بما يقولون ، لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا الى العقل لاثبات قضيتهم من بدهياته ، فان ذلك ليس في قدرة أحد ، اذ ليس في قدرة أحد من البشر جمع النقيضين في قرن ، والتوفيق بين الأضداد ، وقضيتهم والبدهيات العقلية نقيضان لا يجتمعان .

ونرى أن اعتمادهم على النقل لا يغني من الحق شيئاً ، لأن شروط الانتاج في استدلالهم غير مستوفاة ، اذ ترى أن تلك العبارات التي عثروا عليها في كتبهم لا تفيد على وجه القطع ما يريدون ، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات ، أو باحتمال قريب ، ومن المعلوم في قواعد الاستدلال أن الاحتمال اذا دخل الاستدلال أبطله ، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال اليها من كل جانب . هذا وان الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها وهي ذاتها يعروها النقد العلمي في سندها ، وفي متنها من كل ناحية ، فهي في ذاتها في حاجة الى دفاع طويل لاثباتها ، وقد بينا ذلك كله في موضعه من بحثنا .

صلب المسيح فداء عن الخليقـــة :

٧١- ولنترك الآن الحديث في عقيدة التثليث ، ولكن يجب قبل تركها مؤقتاً أن نشير الى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية ، بل تورد عليها شيئاً فشيئاً ، الى أن أعلن نهائياً عند غالبيتهم في نهاية القرن الرابع الميلادي ، وسنبين ذلك كله فضل بيان في تاريخ المجامع المسيحية ، وأسباب انعقادها ، وقراراتها ، ومداها في موضعه من هذا البحث ، ولنتكلم الآن في العنصر الثاني من عناصر العقيدة المسيحية ، وهي صلب المسيح فداء عن الخليقة ، وقد أشرنا اليها اجمالاً من قبل .

يقولون في هذا : ان الله من صفاته المحبة ، حتى لقد جاء في الكتب المقدسة عندهم : « الله محبة » ومحبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم ، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه الى الدنيا ، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة ، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمته رأى أن يقربه اليه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد الى العالم ، ليخلص العالم ، وقد جاء في انجيل لوقا : « وان ابن الانسان قد جاء لكي يطلب ، ويخلص ما قد هلك ، فبمحبته ورحمته

قد صنع طريقاً للخلاص ، لهذا كان المسيح هو الذي يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، اذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون في الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هوالصلب، لهذا صلب ، ورضى الله عن صلبه ، وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ، ويقولون أنه كان قد انبأ بذلك قبل صلبه .

جاء في انجيل متى في الفقرة التي بعد بيان الصلب : « اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس قائلين : يا سيد ، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حي : اني بعد ثلاثة أيام أقوم ، فمر بضبط القبر الى اليوم الثالث ، لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ، ويسرقوه ، ويقولوا للشعب انه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى ، فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، أذهبوا ، واضبطوه كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بين أن ظهوره كان بين تلاميذه .

وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت أناجيلهم ، ولكنها اختلفت في تفصيل القيام ، فمتى ذكر أنه ظهر في الجليل ، ولوقا ذكر أنه ظهر في أورشليم ، ويوحنا ذكر أنه ظهر في اليهودية والجليل معاً ، ومرقس بين أن ظهوره بين تلاميذه .

وقد ذكر القس إبراهيم سعيد توفيقاً بين هذا الاختلاف فقال : « اجمع البشيرون الأربعة على تقدير هذه الحقيقة . ليس المسيح في القبر ، لأنه قام كما قال ، لكن كلا منهم كتب عن القيامة وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة ، متى كتب عن ظهور المسيح في الجليل ، لأنه كتب عن المسيح الملك ، ولوقا كتب عن ظهوره في

أورشليم ، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئاً من أورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره في اليهودية والجليل لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدي صخر الدهر ، ومرقس كتب عن ظهور المسيح للتلاميذ في فترات منقطعة ، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التي تنتظرهم ، لأنه كتب عن المسيح الذي جاء ليخدم البشرية ، ويرفعها الى مستوى الكمال . كل هذا لكي يوقع البشيرون الأربعة نعمة مشعبة متنوعة العناصر لأنشودة القيامة المجيدة ، فلئن تنوعت روايتهم ، إلا أنها لا تتناقض » .

وهذا أشبه بالتعلات التي لا تناقش ، ولا تقوى أمام النظر المنطقي المستقيم ، ولكنها تقبل في الخطابيات ، فهي كالزهرة ترى وتشم ، ولكن لا تعرك ، وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين :

احداهما : أن كل انجيل كتب لغرض معين لا يشمل في عمومه ما كتب له الانجيل الآخر .

وثانيهما : أن كلا ذكر المكان الذي يتفق مع غرضه ، واذن فلا اختلاف في الخبر .

وهذا الكلام فيه نظر في مقدمته ونتيجته ، وذلك لأنه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك ، ولوقا عن المسيح المخلص ، وهكذا لكان كل انجيل مغايراً للأناجيل الأخرى تمام المغايرة ، مبايناً له تمام المباينة ، لأنه يكتب في موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر ، وان كان الشخص واحداً ، كأن يكتب كتاب عن شخص بارز في السياسة والقانون . فكاتب يكتب عنه سياسياً ، وآخر يكتب قانونياً فالموضوع يختلف ، وان كان الشخص متحداً ، ولكنا لا نجد في الأناجيل في مجموعها ذلك التغاير ، وعلى فرض تسليم تلك القضية لا نستطيع أن نسلم القضية

الثانية ، وهي أن الجليل يناسب المسيح الملك ، وأورشليم تناسب المسيح المخلص ، وهكذا . فلماذا اختصت هذه بالملك وتلك بالخلاص ؟ ان ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق ، وعلى فرض صحة المقدمتين ، فان النتيجة لا تنبني عليهما ، لأن النتيجة اختلاف ذكر الأمكنة في حادثة معينة والشهادة بها ، فأحد الشهود يقول : انه رآه في الجليل ، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ في فترات متقطعة ، وثالث يشهد بوجوده في أورشليم ، واذا اختلف الشهود في مكان حادثة معينة كان اختلافهم سبباً للظنة في الشهادة واتهام الشهود فيها ، ولئن قيل أن المسيح ظهر في الأمكنة التي ذكرت ، بيد أن كلا ذكر ما رأى ، ولم يكن رآه فيها جميعاً كان الكلام مستقيماً ، ولكن يكون معناه أن كل انجيل لم يذكر حال المسيح كاملة ، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكروها كاملة على هذا الأساس ، ويكونوا قد نسوا حظاً مما ذكروا به .

المسيح يدين ويحاسب :

٧٢- لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدها المسيحيون إلا أربعين يوماً ، ثم ارتفع بعدها الى السماء وجلس بجوار الرب في زعمهم ، وسيأتي ليدين الناس يوم القيامة ، يحاسب كل انسان على ما فعل وقال : ان خيراً فخيراً ، وان شراً فشراً . وله بهذا الملك الأبدي ، فلا فناء لملكه ، فهم يقولون : ان الله قد أقام يوماً سيدين فيه سكان هذه الأرض بيسوع المسيح ، لأن الآب في زعمهم لا يدين أحداً ، بل قد أعطى ذلك للابن ، فأعطاه سلطان أن يدين الانسان ، لأنه ابن الانسان أيضاً ، ولابد أن يظهر الناس جميعاً أمام كرسي المسيح ، لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع ، خيراً أو شراً ، هذه عقيدتهم .

فقد جاء في انجيل يوحنا : « الحق أقول لكم ، انه تأتي ساعة ، وهي الآن ، حين يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ، لأنه كما

أن الآب له حياة في ذاته ، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته ، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً ، لأنه ابن الانسان ، لا تعجبوا من هذا فانه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته ، فيخرج الذين فعلو الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة ، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً ، كما اسمع أدين ، ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي ، بل مشيئة الآب الذي أرسلني » . راجع الاصحاح الخامس .

وجاء في رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثوس : « لابد اننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح ، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد ، بحسب ما صنع ، خير كان أم شراً » (راجع الاصحاح الخامس من هذه الرسالة) .

وجاء في رسالة بولس الى أهل تسالوفيكي : « ان الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً ، واياكم الذين تتضايقون – راحة معنا ، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته ، في نار لهيب معطياً نقمته للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون انجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ، ومن مجد قوته . متى جاء ليتمجد في قديسيه ، ويتعجب منه في جميع المؤمنين » .

فهذه النصوص جميعها تبين بجلاء أن الذي سيحاسب الناس ، ويجازيهم بما فعلوا ، الخير بمثله والشر كذلك . انما هو المسيح في نظرهم .

تقديـــس الصليـــب :

مقـام الصليـب في المسيحيـة :

٧٣– لا يرتفع تقديس الصليب الى مرتبة العقائد السابقة ، لأن تلك العقائد أساس المسيحية . أما الصليب فليس له ذلك الحظ . وان

كان شعارهم ، وموضع تقديس الأكثرين . ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح .

جاء في انجيل لوقا : « وقال للجميع ان أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعي » .

وحمل الصليب كما يقول كتابهم ، اشعار بانكار النفس ، واقتفاء أثر المسيح في هذا الانكار ، والسير وراء مخلصهم ، وفاديهم .

جاء في شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد : « ان آثار قدمي المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لأنه وان كان المسيح قد صلب عنا فقال في صلبه : « قد أكمل » لكنا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعي لأن نكون شركاء المسيح المتألم ، ان شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغي أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه ، ان صلب المسيح معناه مات عنا ، ولكن صليب كل مؤمن معناه : « موت النفس عن الأنانية وحب الذات » وخلاصة هذه الذات هي النفس الأمارة بالسوء ، هي تلك الارادة المتمردة التي ينبغي أن نخضعها ، ونستأسرها لطاعة المسيح ، فقول كل واحد ليس ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت يا رب ، انه من أوجب واجبات كل مسيحي أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً لأن التعبير يحمل صليبه مستعار من العادة التي قضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم ، وهذه العبارة أنفرد لوقا بذكرها ، فهو صليب يتجدد كل يوم ، كما تجددت الآمال والآلام في الحياة اليومية العملية ، فلابد اذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه ، وخطوة تعقبه ، أما الخطوة السابقة له فهي أنكار النفس ، بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمارة بالسوء ، لا ، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافاً الى ألم الموت ، وهذا عمل يستلزم انكار النفس ، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط ، بل فزعوا من ظله . كذلك كان

شعور اليهود بأن حمل الصليب هو حمل اللعنة ، لأنه مكتوب في ناموسهم : « ملعون كل من علق خشبة » ، والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هي اقتفاء آثار المسيح كقوله : « ويتبعني » ، اذن ليس حمل صليبنا غاية لكنه وسيلة لهذه الغاية ، وهي اتباع المسيح حيث « يمضي » أ.هـ .

فحمل الصليب اذن عندهم ليس غاية ، وليس مقصوداً لذاته ، ولكنه مقصود لغاية أخرى أسمى عندهم ، وهي اقتفاء خطوات المسيح في انكار الذات ، والرضا بالفداء في زعمهم واتباع تعاليمه .

عبادتهـــم :

٧٤- عند النصارى عبادتان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فانهم يقولون أن شرعه عليهم اختياري لا أجباري ، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق ، فلنتركه الى الكلام في الفرق والكنائس ان كان للقول متسع ، ولنتكلم الآن في صلاتهم .

والصلاة عندهم ركن من أركان الدين ، وهي في زعمهم تقربهم الى الله عن طريق المسيح .

ولقد جاء في كتاب الأصول والفروع : « ان الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادي ، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب ، يعبر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف ، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له ، وبالنسبة لاقتناعه بجهوده واحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد ، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة ، تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار ، وبالنسبة للاحتياج اليه تعالى تكون الصلاة طلباً ودعاء » .

والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمنزلة الدعامة :

الشرط الأول : أن تقدم باسم المسيح ، فقد جاء في الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا : « الحق أقول لكم أن كل ما طلبتم من الآب بأسمي يعطيكم ، الى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي ، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً » .

ويعللون ذلك بأن الانسان بسبب خطاياه أبعد عن رضا الله ، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد ، وأصبح قريباً اليه .

فقد جاء في رسالة بولس الى أهل أفسس في الاصحاح الثاني منها : « لكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً . ونقض حائط السياج المتوسط » .

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك ، وهو أن الاسم يمثل دائماً المسمى ، فتكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا ، بحيث تكون طلباتنا طلباته ، وصلاحنا صلاحه ، وحياتنا حياته ، وبالجملة كأنه يحيا فينا ولأجلنا » .

الشرط الثاني : أن يسبق الصلاة الايمان الكامل بما عندهم ، فقد جاء في الاصحاح الحادي عشر من انجيل مرقس ما نصه : « لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه ، فيكون لكم » .

وجاء في رسالة يعقوب : « وليكن الطلب بايمان غير مرتاب ألبتة ، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه ، فلا يظن ذلك الانسان أنه ينال شيئاً من الرب » .

وليست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها ، بل ترك لهم أن يتلوا العبارات التي يختارونها بشرط ألا تخرج عن قاعدة الصلاة التي علمهم أياها المسيح لكي يصلوا على منوالها ، وهي المسماة بالصلاة الربانية ، وهي التي جاءت في صدر الاصحاح الحادي عشر من انجيل يوحنا ، ففيه عن المسيح : « واذ كان يصلي في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يا رب علمنا أن نصلي ، كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه ، فقال لهم : متى صليتم ، فقولوا أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا اعطنا كل يوم ، وأغفر لنا خطايانا ، لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب الينا . ولا تدخلنا في تجربة ، ولكن نجنا من الشر . ولديهم أمثلة كثيرة للصلوات يختارون منها ما يسهل عليهم ، وأشهر الأسفار المشتملة على نماذج للأدعية والصلوات سفر المزامير .

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « انه خزانة ذهبية لصلوات داود النبي وغيره من الأنبياء صلوا بها في أحوالهم الخاصة ، مسوقين من الروح القدس ، وكثيراً ما يعرض علينا ذات أحوالهم ، فنقتبس من أقوالهم ما يطابق حالنا واحتياجنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملمات الأمور ، كما اذا كنا في حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس في صلاتنا من مزمار - ٥١ - لأنه يشتمل على أشد العبارات تأثيراً بصدد التوبة والاعتراف ، والاستغفار من الله ، وكما اذا كنا في حال الشعور برحمة الله علينا ، ونعمته نقتبس من مزمار - ١٠٣ - للتعبير عن شكر قلوبنا ، وشعورها بالمنة والنعمة ، انتهى بتصرف .

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم ، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة ، بل كل ذلك قد وكل الى نشاط المصلين ، ورغبتهم في العبادة ولكن لأن اليهود كانوا يعبدون الله في هياكلهم في صباح كل يوم

ومسائه استنبطوا أنه تلزم الصلاة مرتين ، احداهما في الصباح ، والأخرى في المساء .

ويقولون في حكمة ذلك في الصباح : « نطلب بركة الرب علينا سحابة اليوم ، وان يهدينا الى عمل ما فيه رضاؤه ، وان يحفظنا من السوء ، وفي المساء نشكره على احسانه علينا كما اننا نعترف بما فرط منا في اليوم من الزلات ، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا وفوق ذلك لانفتأ نذكر فضله ونشعر بجميله دائماً » .

واذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم ، فالمستحسن الاكثار ، ويخالفون اليهود في زعمهم أنَ الاكثار من الصلاة يجعل الله يمل .

جاء في انجيل لوقا في صدر الاصحاح الثامن عشر ما نصه : « قال لهم مثلاً في أنه ينبغي أن يصلى كل حين ، ولا يمل قائلاً : كان في مدينة قاض لا يخالف الله ولا يهاب انساناً ، وكان في تلك المدينة أرملة ، وكانت تأتي قائلة أنصفني من خصمي وكان لا يشاء الى زمان ، ولكن بعد ذلك قال في نفسه : وان كنت لا أخاف الله ولا أهاب انساناً ، فاني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني أنصفها لئلا تأتي دائماً فتقمعني . وقال الرب اسمعوا ما يقول قاضي الظلم ، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين اليه نهاراً وليلاً وهو متمهل عليهم ، أقول لكم انه ينصفهم » .

يقول القس إبراهيم سعيد في شرح الجمل في انجيل لوقا : « ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل » من هنا ترى ان صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط ، ولكنها من الأمور الواجبة ، فهي فرض عين لا فرض كفاية ، وهذا عن خلاف ما علم به التلمود ، محظور على الانسان أن يصلي أكثر من ثلاث مرات في النهار ، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة ، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح

تعب على الجسد ، سيما اذا تأخرت الاجابة ، فالروح نشيط والجسد ضعيف » .

وجاء في آخر رسالة بولس الى أهل تسالونيكي : « صلوا بلا انقطاع » .

وبين معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول : « معنى هذا أن نستحضر في أذهاننا روح الصلاة على الدوام ، وكلما خطر على البال ذكر الله ومحبته نرفع قلوبنا اليه ، سواء أكان بالقول أو بالتوجيهات القلبية بدون كلام ، والله يعلم ما في القلوب » .

من شعائر المسيحيـــة :

٧٥- للمسيحية شعائر يجب القيام بها ، لا يصح التخلي عنها ، ويقولون فيها أنها فرائض مقدسة وضعها المسيح ، وهي أعمال حسية تشير الى بركات روحية غير منظورة عندهم ، ومن هذه الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الرباني .

التعميد والعشاء الرباني :

وقد جاء في انجيل متى عن التعميد : « تقدم يسوع وكلمهم قائلاً دفع الى كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فأذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بأسم الآب والابن وروح القدس ، وعلموهم جميع ما أوصيكم به » .

وجاء بالنسبة للعشاء الرباني في رسالة بولس لأهل كورنثوس ما نصه: « ان الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها نفسه أخذ خبزاً ، وشكر ، فكسر وقال : خذوا وكلوا ، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكرى » .

كذلك ذكر الكأس أيضاً بعد ما تعشوا قائلاً : « هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي ، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى ، فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجيء » .

بهذه النصوص ثبت التعميد ، والعشاء الرباني ، والتعميد يقول فيه صاحب كتاب الأصول والفروع : « فريضة مقدسة يشار فيها الغسل بالماء باسم الآب والابن والروح القدس الى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح ، وهي ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية ، والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بايمانهم وطاعتهم للآب والابن والروح القدس كالهِهم ومعبودهم الوحيد ، ولا يجوز أن يعمدوا إلا اذا اعترفوا بايمانهم جهاراً أمام كنيسة الله » ويقول في العشاء الرباني : « وهو فريضة رسمها المسيح في الليلة التي أسلم فيها الجسد ، ويستعمل في هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر ، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز ، وقليلاً من الخمر على المثال الذي رسمه المسيح تذكاراً لموته ، فالخبز يشير الى جسده المكسور ، والخمر الى دمه المسفوك ، فالمؤمنون الذين يشتركون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالايمان كالخبز الذي نزل من السماء وكل من يأكل منه لا يجوع ، ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً لحياة روحية لأجل النمو في النعمة والايمان » ويقول أيضاً : « ويشير العشاء الرباني الى مجيء المسيح الثاني ، كما يشير الى موته فيكون تذكاراً للماضي والمستقبل » .

من تنظيم الأسرة :

٧٦- في الأناجيل ورسائل من يعتقدون أنهم الرسل في المسيحية ذكر للزواج والطلاق ، ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة ، وخلاصة ما جاء في كتبهم المعتبرة أن الزواج قد سن للانسان وشرع له ، بل ان الزواج شرعه الله للانسان وهو في جنة عدن ، فخلق لآدم من ضلعه

حواء ، لأنه كما في سفر التكوين : « ليس جيداً ان يكون آدم وحده ، فاصنع له معيناً نظيره » .

على أن المسيح في انجيل متى قد أجاز العزوبة في حال عدم القدرة التناسلية ، وذلك بدهي .

وجاء في رسالة بولس لأهل كورنثوس أنه تجوز العزوبة اذا استطاع الرجل أو المرأة أن يضبط نفسه ، ويتوقى الزنى . فقد جاء في الاصحاح السابع من هذه الرسالة : « ولكنني أقول لغير المتزوجين ، وللأرامل : أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ، ولكن اذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من الخرق » .

وشريعة الزواج عندهم لا تحل للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة وان لم يوجد نص في ذلك ولا يطلق ، وقد فهموا تحريم الطلاق من انجيل متى ، ففي الاصحاح التاسع عشر منه : « قال له تلاميذه : ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام . بل الذي أعطى لهم ، ولا يفترق الزوجان إلا بالموت ، وبعد موت أحدهما يحل للحي أن يتزوج غيره » .

وهذا نص ما جاء في رسالة بولس لأهل رومية : « ان الناموس يسود على الانسان ما دام حياً . فإن المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة بالناموس بالرجل الحي ، ولكن ان مات الرجل ، فقد تحررت من ناموس الرجل ، فاذا ما دام الرجل تدعى زانية ان صارت لرجل آخر وقبل موت أحدهما لا يحل لهما الطلاق » .

وهذا نص ما جاء في متى في الاصحاح التاسع عشر منه : « جاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما

ذكراً وأنثى ؟ وقال : من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسداً واحداً ، اذ ليس بعد اثنين ، بل جسد واحد . فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان . قالوا : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق ، فنطلق ؟ قال لهم : ان موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا ، وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى ، وتزوج بأخرى يزني ، والذي يتزوج بمطلقة يزني » .

الطلاق اذن لا يجوز ولا يقع ، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق .

الحال الأولى : حال زنى أحد الزوجين ، فللآخر أن يطلب التفريق ، ويجاب في هذه الحال ان ثبت الزنى .

الثاني : اذا كان أحد الزوجين غير مسيحي فيصبح التفريق عند تهاجرهما وعدم وجود الألفة بينهما ، ولذا جاء في رسالة بولس الى أهل كورنثوس : والمرأة التي لها رجل غير مؤمن ، وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه ، لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة ، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل ، وإلا فأولادكم نجسون ، وأما الآن فهم مقدسون ، ولكن ان فارق غير المؤمن فليفارق » .

ولقد أمرت المسيحية في وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم ، فقد جاء في احدى رسائل بولس : « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة ، وأسلم نفسه لأجلها » وفيها أيضاً : وأما أنتم أيها الأفراد فليحب كل واحد امرأته ، هكذا كنفسه ، وأما المرأة فلتحب رجلها .

شرائع التوراة والمسيحية :

منزلة شرائع التوراة في المسيحية :

٧٧- ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتباً مقدسة تسميها كتب العهد القديم ، أن تأخذ بكل الشرائع التي نصت عليها التوراة إلا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه ، ويظهر أن المسيحيين استمروا على ذلك نحواً من اثنتين وعشرين سنة من بعد المسيح ، وهم في هذا كانوا يسيرون على المنهاج الذي سنه ، والطريق الذي بينه . ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضي اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم ، وخطب يعقوب فيهم ، مقترحاً عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم في أربعة ، وهي : الزنى ، وأكل المخنوق والدم ، وما ذبح للأوثان ، وكان ذلك لأنهم وجدوا ان الختان يشق على بعض من يدعونهم الى النصرانية ، فيفرون منها بسببه .

وهذا نص ما جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بعد بيان خلاف التلاميذ بشأن الختان ، واجتماعهم لأجل الفصل في شأنه حينئذ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم ، فيرسلوهما الى أنطاكية مع بولس وبرنابا ، وهما يهوذا الملقب برسابا ، وسيلا ، رجلين متقدمين في الأخوة ، وكتبوا بأيديهم هكذا : الرسل والمشايخ يهدون سلاماً الى الأخوة الذين هم من الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية ، اذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم ، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس ، من الذين نحو لم نأمرهم . وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ، ونرسلهما اليكم مع حبيبنا برنابا ، وبولس ، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح ، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاهاً ، لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن - ألا نضع عليكم ثقلاً أكثر ، غير هذه الأشياء

الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام . وعن الدم ، والمخنوق ، والزنى التي أن حفظتم أنفسكم منها ، فنعما تفعلون . كونوا معافين » .

في هذا الخطاب يتبين أن المشايخ والتلاميذ يحللون للناس كل ما حرمه الناموس ، أي التوراة وكتب النبيين السابقين ، ولا يجعلون محرماً عليهم إلا أربعة أمور ، والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط ، وبذلك حل لهم كل شيء حرمته التوراة ، حل لهم الخمر والخنزير ، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمته ، وبأي شيء أعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحريم ؟ قد قالوا أن ذلك بالهام من روح القدس وتجليه .

وقد ذكر صاحب سفر الأعمال عن لسان بطرس ، أنه قال في افتتاح ذلك الاجتماع الذي أصدر ذلك القرار ما نصه : « أيها الرجال الأخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الانجيل ويؤمنون . والله العارف للقلوب شهد لهم معطياً لهم روح القدس ، كما لنا أيضاً ، ولم يميز بيننا وبينهم بشيء ، اذ طهر بالايمان قلوبهم ، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص ، كما أولئك أيضاً » .

فمن هذا النص يستفاد أن الذي سوغ لهؤلاء أن ينصرفوا جهراً عما كانوا عليه ، وعما تركهم المسيح عليه ، هو أنهم ينزل عليهم الروح القدس ، كما كان ينزل على النبيين والصديقين ، وذلك في اعتقاد كتاب المسيحية ، وقد بينا حقيقة ذلك في موضعه من كلامنا عن الكتب .

تحليل لحم الخنزير مع تحريمه في التوراة :

ولقد أحلوا فيما أحلوا من محرمات التوراة لحم الخنزير وكان المعروف

أنه حرام في النصرانية التي تأخذ بكتب العهد القديم ، وعلى رأسها التوراة .

ويروي ابن البطريق في هذا المقام أن اليهود لما دخلوا في النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى في ايمانهم ، فأشار بطريرك القسطنطينية على قسطنطين أن يختبرهم بحملهم على أكل لحم الخنزير وقال له : « ان الخنزير في التوراة حرام ، واليهود لا يأكلونه ، فتأمر أن تذبح الخنازير ، وتطبخ لحومها ويطعمون منها هذه الطائفة ، فمن لم يأكل علمت أنه مقيم على اليهودية » عندئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، اذ نصت على التحريم التوراة المقدسة في نظر النصارى ، كما هي مقدسة في نظر اليهود ، وقال : « ان الخنزير في التوراة محرم فكيف يجوز لنا أن نأكل لحمه ، ونطعمه للناس » ولكن البطريرك ما زال به حتى حمله على الاعتقاد بأنه حلال ، فقد قال له : « ان سيدنا المسيح قد أبطل سائر ما في التوراة ، وجاء بتوراة جديدة هي الانجيل ، وقال في انجيله المقدس ان كل ما يدخل الفم ليس ينجس الانسان ، انما ينجس الانسان كل ما يخرجه من فيه » يعني السفه والكفر ، وغير ذلك مما يجري مجراه . ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس رأى رؤيا تفيد التحليل ، وبذلك يحللون الخنزير .

المجامع المسيحية

تاريخها - وأسبابها - وقراراتها

٧٨- قد شرحنا فيما أسلفنا من القول العقائد المسيحية ، كما هي في كتبهم ولم نتجه الى الآن لدراستها دراسة نقدية لأننا نجدهم يجتهدون في تصويرها ويشعرون بعظم المشقة في ذلك ، حتى اذا يئسوا قالوا أنها فوق العقل ، وأن العقل لا يستطيع تصويراً كاملاً ، وأنها ستنجلي يوم القيامة ، ولذلك نجد من الظلم لأنفسنا أن نناقشها ، لأن العقل لا يستسيغها باعترافهم فكيف نناقشها ؟ وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا في تصورها وتصديقها ، لا في البرهنة لها واثباتها ، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل ، ونحيل القارىء الكريم على ما كتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء ، ونخص بالاشارة كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي ، وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق ، والقول الصحيح لابن تيمه ، بلل الله ثراهم ، فان هؤلاء لم يتركوا مقالاً لقائل .

ويهمنا الآن في بحثنا التاريخي أن نبين الأدوار التي مرت عليها هذه العقيدة ، فانه من المقرر في تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذي يعتقده جماهير المسيحيين ، أو الكثرة الغالبة فيهم ، لم يعلن للناس دفعة واحدة ، بل في أزمان متفاوته مختلفة ، وكان باعلان المجامع التي كانت تعقد من الأساقفة ، وفيها يقرر المجمع رأياً معيناً ، ولا يهمنا مما كانت تقرره تلك المجامع إلا ما يتعلق بالعقيدة وان كنا سنعرض أحياناً لما يجيء في ثنايا قراراتها من بعض النظم .

كيف وجدت فكرة جمع المجامع :

والمجامع في المسيحية هي كما يقول علماؤهم جماعات شورية في المسيحية ، قد رسم رسلهم نظامها في حياتهم . حيث عقدوا المجمع

بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة ، وقرر ذلك المجمع ، كما علمت قريباً ، عدم التمسك بمسألة الختان ، بل زاد فقرر عدم التمسك بشرائع التوراة ، وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس عندهم فيما يتعلق بالتحريم ، إلا تحريم الزنى ، وأكل المخنوق ، وأكل الدم وأكل ذبائح الأوثان ، فقد قالوا ان التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال في أصحاحه الخامس عشر قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع ، لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة .

المجامع العامة والمجامع الخاصة :

والمجامع عندهم قسمان : مجامع عامة أو على حد تعبيرهم مجامع مسكونية ، أي تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة ، والمجامع المكانية وهي التي تعقدها كنائس مذهب أو أمة في دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها ، إما لاقرار عقيدة ، أو لرفض عقائد أخرى .

ويقسم المجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان الى ثلاثة أقسام فيقول : « وهذه المجامع تنقسم بالنظر الى عدد أربابها ودرجاتهم وشوكتهم الى ثلاثة أقسام وهي : مجامع عامة ، ويقال لها مسكونية ، ومجامع ملية ، أي خاصة بطائفة دون غيرها ، ومجامع اقليمية ، أي خاصة باقليم مخصوص ، لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج إلا الى ذكر المجامع التي تعتبر عامة ، سواء صادق عليها الجميع أو أنكرها بعضهم على بعض ، لما في ذلك من معرفة النتائج التي تولدت عنها » .

هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحي ، واذا كان هو لا يعنى في تاريخ ديانته إلا بالمجامع العامة ، فنحن كذلك لا نعنى إلا بها ، وقد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية الى سنة ١٨٦٩

فكانت عدتها عشرين مجمعاً ، وقد ذكرها جميعاً بالاجمال ، وذكر قراراتها بالاشارة وسنحذو حذوه في بعضها ، وسنترك الاجمال الى بعض التفصيل في بعضها الآخر ، وخصوصاً في المجامع التي كانت في القرون الأولى للمسيحية ، لأنها هي التي حددت للأخلاق حدود العقيدة المسيحية في نظر مقريها ، وهي التي رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة في الكنائس ، أو بعضها الكثير الى الآن ، وهي التي فلحت الأرض لتبذر بذور هذه المسيحية التي سادت أفكار المسيحيين في الأجيال من بعد .

ونبدأ بأعظم هذه المجامع ، وأبعدها أثراً ، وأكبرها شأناً ، وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً وهو مجمع نيقية .

١- مجمع نيقيـة سنـة ٣٢٥

سبب انعقاده العام الاختلاف بينهم في شخص المسيح :

٧٩- اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى ، وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً ، لا يمكن أن يكون معه وفاق ، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح ، أهو رسول من عند الله فقط ، من غير أن تكون له منزلة أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه ، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول ، فهو من الله بمنزلة الابن ، لأنه خلق من غير أب ، ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله ، لأنه هو كلمته ، ومن قائل انه ابن الله ، له صفة القدم ، كما لله تلك الصفة ، وهكذا تباينت نحلهم ، واختلفت ، وكل يزعم ان نحلته هي المسيحية الصحيحة التي جاء بها المسيح عليه السلام ، ودعا اليها تلاميذه من بعده ، ويظهر أن ذلك الاختلاف ، وتلك النحل المتباينة المتضاربة المتنازعة ، وقد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان ، واليونان ، والمصريين . فتكون في المسيحية مزيج غير تام التكوين ، غير تام الاتحاد والامتزاج ، وكل قد بقى عنده عن عقائده الأولى ما أثر في تفكيره في دينه الجديد ، وجعله يسير على مقتضى ما أعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد .

ومن دخل في ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما أعتنقوه جديداً على ضوئها ، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها .

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهادات الرومانية ، لأنهم شغلوا بدفع الأذى ، ورد البلاء واستقبال المحن والكوارث ، وكانوا يستترون بدينهم ولا يظهرونه ، ويخفون عقائدهم ، ولا يعلنونها ، حتى اذا رزقوا الأمان ، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان

ظهرت الخلافات الكامنة ، واذا هم لم يكونوا متفقين إلا في التعلق باسم المسيح ، والاستمساك بالانتساب اليه ، من غير أن يتفقوا على شيء في حقيقته ، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه ، واعتزم الدخول في النصرانية ، ووجد هذا الاختلاف الشديد ، أمر بعقد مجمع نيقية .

الاختلاف الخاص الذي انعقد المجمع بعده :

٨٠- هذا هو السبب في عقد مجمع نيقية بشكل عام ، لكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات ، وهو ما يسمونه في تاريخهم بدعة أريوس ، كان هذا الرجل في مصر داعية قوي الدعاية ، جريئاً فيها ، واسع الحيلة ، بالغ الأدب ، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الاسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعو اليه ، فقام هو محارباً ذلك ، مقراً بوحدانية المعبود ، منكراً ما جاء في الأناجيل مما يوهم تلك الألوهية .

كلام أريوس :

وقد قال في بيان مقالته ابن البطريق : « كان يقول ان الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب اذ لم يكن الابن » .

ولم يكن بدعاً في القول بهذه الفكرة بين المسيحيين ، بل انها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله ، كما يقول المسيحيون أنفسهم .

ولقد جاء في كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه : « الذنب ليس على أريوس بل على فئات أخرى سبقته في ايجاد هذه البدع ، فأخذ هو عنها . ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير أريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية ، حتى انتشر هذا التعليم وعم » .

أنتشار رأي أريوس وطرق محاربته :

ولقد كان لرأي أريوس في أعتبار المسيح مخلوقاً لله مشايعون كثيرون ، فقد كانت الكنيسة في أسيوط على هذا الرأي ، وعلى رأسها ميليتوس ، وكان أنصاره في الاسكندرية نفسها كثيرون من حيث العدد ، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون ، كما كان لهذا الرأي مشايعون في فلسطين ومقدونية ، والقسطنطينية .

وقد أراد بطريرك الاسكندرية أن يقضي على هذه الفكرة ، فلم يعمد الى المناقشة والجدل ، حتى لا يتسع الخرق على الراقع ، وحتى لا يلحن بالحجة عليه أريوس ، ولكنه عمد الى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة .

ويبني ذلك على أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه ، نفى من الكنيسة مرتين لهذا الرأي ، وبحجة تلك الرؤى المنامية ، ومن أمثلتهم قول البطريرك بطرس الذي أمر بنفيه : « أن السيد المسيح لعن أريوس هذا فاحذروه ، فاني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب ، فقلت له يا سيدي من شق ثوبك ؟ فقال لي : أريوس ، فاحذروا أن تدخلوه معكم » .

ولم يجد النفي واعلان الرؤى والأحلام في القضاء على رأي أريوس وجمع الناس حول قوة الكنيسة ، حتى اذا ولى أمر الكنيسة البطريرك اسكندر أخذ يعالج المسألة بنوع من الحيلة والصبر ، فكتب الى أريوس وزعماء هذا الرأي يدعوهم الى رأي كنيسة الاسكندرية ، ولكن محاولته لم تجد أيضاً ، فعقد مجمعاً في كنيسته بالاسكندرية وحكم على أريوس بالحرمان لها فلم يخضع لهذا ولم يخنع ، وغادر الاسكندرية الى فلسطين .

وقد كان مذهب عدم ألوهية المسيح ذائعاً منتشراً ، وكان أسقف مقدونية على مذهب أريوس أيضاً ، ويعظ على أساسه ، وفي الحق أننا نجد

أن أسقف مقدونية وأسقف فلسطين ، وكنيسة أسيوط ، كل أولئك على رأي أريوس ، وكنيسة الاسكندرية وحدها هي التي تحاربه ، فالخلاف محصور اذن بين أريوس ، ومعه أسيوط وفلسطين ، ومقدونية وبين بطريرك الاسكندرية .

تدخل قسطنطين جمع مجمع نيقيا :

٨١– وقد تدخل قسطنطين أمبراطور الرومان في الأمر ، فأرسل كتاباً الى أريوس والاسكندر يدعوهما الى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، ولكنهما لم يتفقا ، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ .

ويقول ابن البطريق المسيحي في وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : « بعث الملك قسطنطين الى جميع البلدان ، فجمع البطاركة الأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان ، فمنهم من كان يقول أن المسيح وأمه الهان من دون الله ، وهم البربرانية ، ويسمون المريميين ، ومنهم من كان يقول أن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بأنفصال الثانية منها ، وهي مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وانما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهي مقالة البيان وأشياعه » .

ومنهم من كان يقول إن المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وان ابتداء الابن من مريم ، انه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الانسي صحبته النعمة الآلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمي ابن الله ، ويقولون : الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة اسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس ، وهي مقالة

بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليقانيون .

ومنهم من كان يقول انهم ثلاثة آلهة لم تزل : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما ، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه ، وزعموا أن مرقيون رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس ، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً » أ.هـ. المراد منه.

موقـف قسطنطيـن من المتناظريـن :

اجتمع اولئك المختلفون ، وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من ، وأخلى داراً للمناظرة ، ولكنه جنح أخيراً الى رأي بولس ، وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة .

انحيازه لرأي مؤلهي المسيح مع أنهم ليسوا الكثرة :

ويقول في ذلك ابن البطريق : « وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً ، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه ، وسيفه ، وقضيبه . فدفعه اليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتي ، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين . فباركه الملك ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به » .

العقيـدة التي فرضهـا المجمـع :

وضع هذا الجمع المحدود من الأساقفة قرارات في العقيدة والشرائع ،

ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمنا إلا بيان العقيدة التي قررها المجمع وفرضها على المسيحيين .

وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية ، فقال عنها ما نصه :
« ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء . أو من يقول ان الابن وجد من مادة أو جوهر غير الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول أنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران » .

قراراته تؤيد برهبة السلطان :

٨٢- اذن قرر المجمع ألوهية المسيح ، وأنه من جوهر الله ، وأنه قديم بقدمه ، وأنه لا يعترية تغيير ولا تحول ، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك ، والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفاً ، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف ، وان لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة ، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ ان باب النقد فيه متسع .

النقد الموجه الى المجمع :

١- وأول ما يلاحظه الناقد أن الذين دعوا اليه ، وجابوا الأمصار ووصلوا الى نيقية بدعوة من قسطنطين ، وبتفاهم البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية وأربعين وألفين من الأساقفة ، ولكنا نجد العدد ينزل الى ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف ، فما هي آراء الباقين ؟ ولماذا أهملت كل هذا الاهمال ؟ أكانوا جميعاً مختلفين في النحل والآراء ، حتى أن نحلة لم يصل عددها الى ٣١٨ ، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التي يزيد عددها على النصف ، ولو واحداً ، اتجهوا الى الأخذ بالكثرة النسبية ، وهو اعتناق

الرأي الذي يأخذ به أكبر عدد في الأصوات وان لم يصل النصف أو يقاربه ؟ ان المروى غير ذلك ، لأن ابن البطريق يقول : ان قسطنطين هو الذي اختار أن يعقد أولئك الأساقفة الذين يبلغون ٣١٨ مجلساً خاصاً بهم ، وحضر هو المجلس ، وأعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على اخوانهم في زعم ابن البطريق المسيحي التثليثي ، ولأن الرواة يقولون إن أريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته اليهم انضم الى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف ، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة ، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية ، لكان الواجب اذن أن يكون الغلب لأريوس الذي احتج بما تحت أيديهم من أناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها .

الرغبة والرهبة من السلطان لهما دخل في القرارات :

ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل في تكوين رأي الذين رأوا ألوهية المسيح ، فلقد يروى أن أولئك الـ ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بألوهية المسيح ، ولكن تحت سلطان الاغراء بالسلطة الذي قام به قسطنطين بدفعه اليهم شارة ملكه ليتحكموا في المملكة أجمعوا . فقد دفعهم حب السلطان الى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذي ظهر في عقده مجلساً خاصاً بهم دون الباقين ، لاعتقاده إمكان اغرائهم . فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب ، أو هما معاً ، وبذلك قرروا ألوهية المسيح ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ، ورهبة الحكام .

المجمع فرض لنفسه سلطاناً كهنوتياً على الناس :

(ب) ان المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرر أن تعاليم الدين لا

يتلقونها من كتب المسيحية رأساً ، بل لابد من تلقيها من أفواه أولئك العلماء ورجال الكهنوت ، وأن أقوالهم في ذاتها حجة ، سواء أخالفت النصوص أم وافقت ، وسواء أكانت الصواب ، أم جافت الحق ، وان ذلك كان له ما بعده في المسيحية . وهو مخالف كل المخالفة لما جاء في تعاليم المسيح المنصوص عليها ، حتى كتبهم التي يقرأونها ويعترفون بها ، فقد جاء في الاصحاح العشرين من انجيل متى ما نصه : « رؤساء الأمم يسودونهم ، والعظماء يتسلطون عليهم ، فلا يكن فيكم هذا » ولكن العلماء تسلطوا على اخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيبه ، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين .

أمـره بتحريـق ما يخالفـه :

(جـ) ان المجمع أمر بتحريق الكتب التي تخالف رأيه ، وتتبعها في كل مكان ، وحث الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا يمنع أن يصل الى الناس علم بأي أمر من الأمور التي تخالف رأيه ، وهو بهذا يحاول التحكم في القلوب ، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه ، ومنعها منعاً باتاً جازماً من أن تقرأ غيره ، ويسد عليها منافذ النور للاهتداء الى ما يخالفه ، ولعل المجمع مخطىء في ذلك التحريم ، وآثم في ذلك التحريق ، بل ان المجامع العامة من بعد قد خطأته ، فأعادت الى حظيرة التقديس كتباً حرمها ، وأخرجت من البلى كتباً حرقها ، قد حرم كتباً من العهد القديم ، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجامع المسيحية من بعده ، وحرم من كتب النصارى المعتبرة الآن : رسالة بولس الى العبرانيين ، والرسالة الثانية لبطرس ، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ، ورسالة يعقوب ، ورسالة يهوذا ، ومشاهدات يوحنا ، ولكن المجامع من بعد أقرتها ، وأجمعت عليها .

اذن لم يكن المجمع مصيباً من كل الوجوه ، وان أخطأ في معرفة

الصحيح من الكتب ، فآراؤه الأخرى أكثر عرضة للخطأ وأكثر استهدافاً للنقد ، لعل أشدها صلة بالباطل ، وأقربها به رحماً ، وأدناه اليه هو ما يتعلق بالعقيدة .

قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر :

(د) بقى أمر نشير اليه اشارة خفيفة ، وهو مقام قسطنطين في المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع ، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية في ذلك الابان ، حتى ساغ له أن يحكم لبعض المجتمعين ، وان لم يكونوا الكثرة على أي اعتبار كانت الكثرة ، أكثرة مطلقة أم كثرة نسبية ؟.

يقول المؤرخ أبوسيبوس الذي تقدس كلامه الكنيسة ، وتسميه سلطان المؤرخين : « أن قسطنطين عمد حين كان أسير الفراش ، وأن الذي عمده هو ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقاً » .

والتعميد اعلان دخول المسيحية ، اذن فقسطنطين ما كان مسيحياً في ابان انعقاد ذلك المجمع ، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء ، ويسوغ لنا أن نقول انه كان له في هذا أرب خاص ، وهو تقريبها من وثنيته ، أو على الأقل عندما رجح رأي فريق على فريق كان يرجح ما هو أقرب الى وثنيته ، وأدنى الى ما يعرفه من عقيدة ، فلم تكن الحجة القوية في جانب ترجيحه على هذا الاعتبار ، أو كان متهماً في ترجيحه بناء على الاعتبار الأول ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فهو قد رجح ما هو أقرب الى الوثنية لوثنيته .

تلقي المسيحيين لقرارات المجمع :

٨٣- ولكن هل أمات ذلك الرأي الوحدانية التي كان يجاهر بها أريوس ، وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها ؟ انه لو فرض أبعد

الفروض عن الحق ، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأي أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعو اليه لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة ، وقوة الاقتناع بها ، وسهولة دخولها الى العقل ، واستساغته لها ، ولذلك لم يقض المجمع على فكرة الوحدانية . بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سبباً في شدة الاستمساك بها ، والمبالغة في المحافظة عليها مما يراد بها .

ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للاحتفاظ بها وحياطتها ، واتخذوا الخديعة سبيلاً لذلك . فتقربوا من قسطنطين وأظهروا له الاقلاع عما كانوا عليه ليعودوا الى ما كان لهم من مناصب . ويستطيعوا مناصرة فكرتهم . ولينالوا ثقة قسطنطين . ومن طريق هذه الثقة ينفذون الى نفسه . ويقنعونه هو بالتوحيد . ليستطيع أن يخدمه بسلطانه وقوته . كما خدم ألوهية المسيح ، أو على الأقل ليقف موقف الحياد ويترك الآراء تسير في مجراها الطبيعي . ولنقص عليك محاولة من محاولات الموحدين .

مجمع صور يرفض بالاجماع قرار مجمع نيقية :

يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف مقدونية كان موحداً من مناصري أريوس في المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرته . ولعن من أجل هذا وأراد أن يتقرب من قسطنطين « فأظهر أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فأزال عنه اللعنة قسطنطين . وجعله بطريرك القسطنطينية فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء . فلما اجتمع المجمع الاقليمي في صور حضره هو وبطريرك الاسكندرية الذي كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو اليها ، وينفرد من بين البطاركة في المبالغة في الدعوة اليها ، والحث عليها ، ولعن كل من يقاومها .

وأنتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس ، ورأيه في المسيح وانكار ألوهيته . وكان في ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به ، اذ لم يحتاطوا بابعادهم ، كما فعلوا في المجمع العام بنيقية . واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الاسكندرية ، وبين المجتمعين ، ولم يكتفوا بالنقاش القولي بل أمتدت الأيدي الى بطريرك الاسكندرية وعمدت الى رأسه لاخراج الوثنية منها ، فضربوه حتى أدموه ، وكادوا أن يقتلوه ، ولم يخلصه من أيديهم إلا ابن أخت الملك الذي كان حاضراً ذلك الاجتماع ، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه .

ما يستنبط من هذا :

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأي بالعصا وجمع اليد ، ولكن سقناه ليتبين منه القارىء مقدار حماسة الموحدين من أهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد ، وأنهم في تلك الحماسة لا يأبهون لشيء ، ولا يهمهم أغضاب ذوي السلطان أو ارضاؤهم ، وسقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر من رواية الكتب المسيحية ، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة في المسيحيين ، ففي مجمع نيقية كانوا الكثرة ، وفي مجمع صور الخاص كانوا الجميع ما عدا رئيس كنيسة الاسكندرية ، واذا كانوا الكثرة في المؤتمرات خاصة وعامة ، فلا بد أن يكونوا الكثرة في جمهور المسيحيين .

واذن تكون فكرة ألوهية المسيح هي العارضة والأصل هو التوحيد كما يستنبط القارىء من المصادر المسيحية نفسها . وسقناه لتعلم أن قسطنطين كان يشجع دائماً المخالفين للتوحيد ، وان كان لا يظهر السخط على غيرهم أحياناً . وسقناه لتعلم أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة مجمع الثمانية عشر والثلاثمائة . وأخيراً سقناه لتعلم أن موطن الدعاية لألوهية المسيح كانت كنيسة الاسكندرية وحدها ، فهي التي حاربت أريوس ، وهي التي لعنته مرتين ، ورئيسها هو الذي خالف في

صور ، ونال عقاب المخالفة جزاء وفاقاً .

فهل لنا أن نقول أن التثليث الذي اشتملت عليه فلسفة الاسكندرية كان يعلن على ألسنة بطاركتها ، وأنهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بآرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام ؟ ان ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح فمن أراد أن يعرف كيف حالت المسيحية من توحيد الى تأليه للمسيح ، فليستعن به .

نشـــاط الموحـــدين :

٨٤- ولم ين الموحدون عن إعلان الاستمساك بعقيدتهم ، وتخطئة الذين أعلنوا ألوهية المسيح ، ومعهم في ذلك الكثرة العظمى من المسيحيين ، كما يدل على ذلك ما سننقله من تاريخ ابن البطريق ، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين ابن قسطنطين الى رأيهم بعد أن مات أبوه ، فاجتمعوا به . وحسنوا رأي الموحدين له ، وبينوا له أنه صميم المسيحية ، وأن الأساقفة الذين ناقضوه خالفوا وجه الحق ، ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التي يبشر بها بين الأنام ، ولكنه لم يعمل على نصرتهم ، ولم يعاونهم في دعايتهم ، مع أن أكثر المسيحيين في ذلك العصر كانوا موحدين .

يقول ابن البطريق : « في ذلك العصر غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية ، وأنطاكية وبابل ، والاسكندرية » . وأسيوط قد علمت أن كنيستها كانت موحدة .

ويقول في بيان حال الاسكندرية ومصر بعد الاجمال السابق « فأما أهل مصر والاسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ، فغلبوا على كنائس مصر والاسكندرية وأخذوها ، ووثبوا على أثناسيوس بطريرك الاسكندرية ليقتلوه ، فهرب منهم وأختفى » .

وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ويحثون على الاستمساك به ، وكلما ولى أسقف غير موحد ثاروا به ، وهموا بقتله ، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت المقدس لم يكن موحداً فيثور عليه الموحدون ، ويهمون بقتله فيهرب منهم ، فيقول في ذلك « وثبت أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسياً على كورلس أسقف بيت المقدس ليقتلوه ، فهرب منهم ، فصيروا أراقليوس أسقفاً على بيت المقدس ، وكان أريوسياً » .

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح ، الأولى تغالب بالكثرة وقوة الايمان ، وسعة الحيلة ، والثانية بقوة السلطان ، وبقايا الوثنية والذين كانوا متأثرين بها ، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون ، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا . وأمكنته التقاليد من نفوسهم . ولكن قوة السلطان طمست نور المذهب الأول . اذ أنها احتاطت فجعلت كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين . واحتاطت أشد الاحتياط في ذلك ، وأخذ أولئك يسيطرون على قلوب العامة بالرؤى والأحلام والهامات يزعمونها ، حتى اختفى المذهب الحق في لجة التاريخ ، ولم يبد على السطح إلا ألوهية المسيح .

٢- المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١

سبب انعقاده :

٨٥- تقرر في مجمع نيقية أن المسيح أله ، وانه ابن الآب وأنه جوهر قديم من جوهر الآب ، ولم يتعرض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق ، وليس بإله . ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قراراً في هذا الأمر ، لذلك ظهرت أفكار بين المسيحيين لا تعترف له بألوهيته ، ويظهر ان الاسكندرية التي كانت مهداً للأفلاطونية الحديثة التي تقول بالتثليث ، وان المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه ، قوة المكون الأول ، والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) - تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين ، كما كانت العامل القوي في اعلان ألوهية المسيح .

عدد المجمع والطعن في كونه عاماً :

أخذ يجاهر رجل اسمه مقدونيوس بأن الروح القدس ليس بإله ، ولكنه مخلوق مصنوع ، وشاعت مقالته بين الناس ، ولم يجدوا فيها نكراً ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية . فاجتمع الى الملك ذوو الأمر من وزرائه وقواده ، وبلغوه أن العامة قد فسدوا ، فهم ما زالوا متأثرين بوحدانية أريوس ، واعتنقوا مذهب مقدونيوس في أن الروح القدس ليس بإله قديم ، بل هو مخلوق مصنوع ، وحرضوه على أن يجمع جمعاً من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوي ويدحضون قول مقدنيوس . فاجتمع في القسطنطينية خمسون ومائة أسقف وكان المقدم فيها بطريرك الاسكندرية ، ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلاً لكل الكنائس . ولكل الأقاليم ، ولذلك كان اعتباره مجمعاً عاماً من الأمور التي ثارت حولها الأقوال .

فيقول في ذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان « قال الرهبان البندكيتيون ان المجمع الذي لم يكن أربابه إلا مائة وخمسين أسقفاً لا ينظم في سلك المجامع المسكونية إلا بعد أن تقره جميع الكنائس » .

بطريرك الاسكندرية هو الذي يقرر ألوهية روح القدس :

اجتمع هذا المجمع في القسطنطينية ، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة فقر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية ، وبذلك نحى عنها رئيس كنيسة الاسكندرية ، وكان لذلك أثره في نفوس تابعي تلك الكنيسة كما جاء في كتاب تاريخ الأمة القبطية . ولكن مع أبعاد ممثل كنيسة الاسكندرية عن مكان الرياسة ، وموضع الزعامة الذي كان لسلفه في مجمع نيقية كان هو المقدم في المناقشة ، وتقرير الرأي الذي أجمع عليه المؤتمر بعد ذلك ، وهذا ما نقله ابن البطريق عنه بنصه : « قال ثيموثاوس بطريق الاسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته . فاذا قلنا ان روح القدس مخلوق ، فقد قلنا أن حياته مخلوقة واذا قلنا ان حياته مخلوقة ، فقد زعمنا انه غير حي ، واذا زعمنا انه غير حي فقد كفرنا به ، ومن كفر به وجب عليه اللعن » .

قرار المجمع يوافق رأي بطريرك الاسكندرية :

واتفقوا على لعن مقدونيوس . فلعنوه هو وأشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده ، ويقولون بمقالته ، اذن كان للاسكندرية فضل الصدارة في القول . والقيادة في الرأي العام . وأن لم تكن لها الرياسة .

نظـــرة فاحصـــة :

ونريد أن نستطرد استطرادة صغيرة عاجلة . وهي أن ننظر في تلك السلسلة الفكرية التي ساقها في شكل دليل شرطي كثرت مقدماته .

وكثرت تالياته ، وان نظرة سريعة فاحصة الى الأساس الذي قامت عليه السلسلة ترينا أنه جعل روح القدس هي روح الله ، وهذا لا يسلمه له مخالفه . ولا يستطيع هو أن يقيم عليه دليلاً .

ان روح القدس خلقه الله ، واتخذه ليكون رسولاً بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحياً من خلقه أو أمراً كونياً ، فهي ليست روح الله المتعلقة بذاته ، وليس عنده من دليل على ما قال ، ولكن هكذا ساق السلسلة ، وهكذا أقتنع سامعوه . وبذلك تم له الثالوث الذي يتشابه تماماً مع فلسفة الاسكندرية ، وقد أعلنها بطريرك الاسكندرية ، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الأقنوم الثالث .

ويقول ابن البطريق في بيان قرارهم : « زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا في نيقية الايمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له ، وممجد وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاث خواص ، وحدية في تثليث ، وتثليث في وحدية ، كيان واحد في ثلاثة أقانيم . إله واحد . جوهر واحد . طبيعة واحدة » .

اذن تقرر التثليث ، وتمت أقانيمه ، ولكن ما زال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع ، فان طبيعة المسيح الانسانية والآلهية ، كيف تجتمعان ؟ هذا موضع الخلاف . ولهذا تجتمع المؤتمرات .

٣- مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

سبب انعقاده :

٨٦- أول خلاف بينهم بعد تقرير الثالوث أن بطريرك القسطنطينية نسطور رأى أن هناك أقنوماً وطبيعة ، فأقنوم الأولوهية من الآب . وتنسب اليه . وطبيعة الانسان وقد ولدت من مريم ، فمريم أم الانسان ، وليست أم الاله .

ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم ، كما نقله عنه ابن البطريق : « ان هذا الانسان الذي يقول انه المسيح . بالمحبة متحد مع الآب ، ويقال أنه الله وابن الله ليس بالحقيقة ، ولكن بالموهبة » .

ويظهر من هذا أن المسيح الذي ظهر بين الناس لم يكن الهاً بحال من الأحوال ، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس .

ولذا جاء في تاريخ الأمة القبطية عن نحلته ما نصه :

النسطوريون ينكرون ألوهية المسيح :

« أما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والأحبار ، بل هي جوهرية تختص بأعظم موضوعات الايمان والأركان في الدين المسيحي ، ذلك أن نسطور ذهب الى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن الهاً في حد ذاته ، بل هو انسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمراً اداً » .

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بألوهية المسيح . وان كان يعتقد أنه فوق الناس ، وليس مثلهم ، ولقد جهر بهذا الرأي ، ونادى

به ، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية ، ولها مكانتها ، ولكن خالفه غيره من الأساقفة ، فكان أسقف روما يعلنه برأيه المخالف له ، مع ما عند نسطور ما رآه من بينات ، وأدلة .

ولقد بلغت مقالة نسطور بطريك الاسكندرية ، وجرت المراسلات بين أسقف الاسكندرية وأساقفة انطاكية ورومة وبيت المقدس ، فاتفقوا على عقد مجمع أفسس للنظر في هذا الرأي ، واعلان صاحبه بالتبرؤ منه ، ولعنه أن أصر على رأيه ، ودعوه ليسمع حكمهم في رأيه . ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع . وأنهم مصرون على ما أعلنوه ، كما أنه مصر على رأيه ، فلم يجد كبير فائدة في حضور المجمع ، فلم يحضر لا هو ولا بطريك أنطاكية .

وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين من الأساقفة ، وقرروا ما نصه كما جاء في تاريخ ابن البطريق :

« ان مريم العذراء والدة الله ، وأن المسيح إله حق وانسان معروف بطبيعتين ، متوحد في الأقنوم » ولقد لعنوا نسطور .

قرار المجمع والاحتجاج عليه :

فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريك أنطاكية غضب ، واحتج على المجمع ، فاختلف المجتمعون على رأيين ، وأصر المشرقيون على الرأي الذي أعلنه المجلس أولاً ، وكتبوا صحيفة فيها « ان مريم القديسة العذراء ولدت الهنا وربنا يسوع المسيح الذي مع أبيه في الطبيعة ، ومع الناس في الناسوت والطبيعة . وأقروا بطبيعتين ، ووجه واحد وأقنوم واحد » خالفهم بطريك الاسكندرية أولاً ، ولكن يقول ابن البطريق انه وافق بعد ذلك وكتب اليهم : « ان أمانتي التي في صحيفتكم » .

انتشار النسطورية في الشرق :

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار . فنفى الى مصر . ولم يندرس مذهبه بذلك النفي ، ولقد وجد أرضاً صالحة لها في الشرق ، فلقد نهضت النسطورية في نصيبين ، ويقول ابن البطريق : « تكاثرت النسطورية في المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة » .

٤- مجمـــع خليكدونيـــة سنـة ٤٥١

كنيسة الاسكندرية تعلن أن المسيح إله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة .

٨٧- ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف في مسألة اجتماع العنصر الانساني والعنصر الآلهي في المسيح ، فلم يقض على نحلة نسطورس قضاء مبرماً ، وان كان قد نفاه وآذاه ، بل نمت نحلته بعد ذلك في المشرق ، وذاعت في البلاد التي ذكرها ابن البطريق ، ولم يتم الخلاف في ذلك عند نسطور وأتباعه ، بل ان كنيسة الاسكندرية قد خرجت هي الأخرى برأي جديد عرضته على الملأ من الأساقفة وجمعوا له جمعاً قرروه فيه ، وذلك الرأي أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت ، وانعقد لأجل هذا مجمع أفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص ، وفي هذا المجمع أعلن ذلك الرأي .

فلما عرضه بطريرك القسطنطينية وأعلن انسحابه من المجلس ، وعدم احترامه ، أمرهم رئيس المجلس باعلان حرمانه ، وحدث خارج المجلس صخب شديد ، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة القسطنطينية ، وقد اشتد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، أهو صحيح محترم السلطان ، أم هو مجمع غير عام لا تلتزم بآرائه الكنائس كلها ؟ واشتد الاختلاف في قرارات الحرمان التي أصدرها ، أهي محترمة واجبة التنفيذ ، أم هي باطلة ، لأنها صادرة عن غير سلطة ؟ حتى جاءت ملكة على الرومان تخالف ذلك الرأي ، وتميل لغيره . فلتنفيذ رأيها في هذا الخلاف الشديد حول مجمع أفسس الثاني وقراراته – أمرت ، هي وزوجها ، بعقد مؤتمر عام ، فاجتمع في مدينة خليكدونية عشرون وخمسمائة أسقف ، وكان الاجتماع تحت اشراف زوج الملكة ، واجتمع في شهر أكتوبر سنة ٤٥١ .

طلب انسحاب بطريرك الاسكندرية ورفض الطلب :

وتقول مؤلفة تاريخ كتاب الأمة القبطية : « وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية انسحاب ديسقورس بطريرك الاسكندرية من المجلس . فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الأسباب التي تلجىء المجمع الى اخراج هذا البطريرك من قاعته ؟ فكان اعتراض هؤلاء أن ديسقورس شكل مجمعاً دون أن يستأذن الكرسي الرسولي ، ويقصدون بالكرسي الرسولي بابا القسطنطينية .. فلم يصادق مندوب الحكومة على هذا الرأي السقيم ، وقرر المجمع بقاء ديسقورس ، ولكن على غير كرسي الرياسة ، كما كان في المجمع السابق لأنها أصبحت في يد رجال الامبراطورة ، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات في أثناء الاجتماع مما جعل مندوبي الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان احدهم : « انه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا مثل هذه الأعمال الشائنة من صياح ، وصراخ ، وسب ، وقذف ، وضرب ولكم . بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد ، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة ، والدليل عوضاً عن القول الهراء ، وأميلوا آذانكم الى سماع ما سيتلى عليكم » .

الشغب في المجمـــع :

وسارت المناقشة بعد ذلك في جو عنيف متعصب وانتهى المجمع الى أن قرر ، أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحده ، التقتا في المسيح .

قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان :

وقد قال ابن البطريق في بيان قرار المجمع : « قالوا ان مريم العذراء ولدت الهنا ، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الآلهية ،

ومع الناس في الطبيعة الانسانية ، وشهدوا أن المسيح له طبيعتان ، وأقنوم واحد ، ووجه واحد ، ولعنوا نسطورس ، ولعنوا ديسقورس ، ومن يقول بمقالته ، ونفوه ولعنوا المجمع الثاني الذي كان بأفسس وقد نفى ديسقورس الى فلسطين » .

الانشقـــاق ومـــداه :

٨٨- هنا نرى انشقاقاً بين المسيحية المثلثة ، واختلافاً يكون بعيد المدى في الأجيال المقبلة ، وهو أساس اختلاف الكنائس الى يومنا الحاضر فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان احداهما انسانية يشارك فيها الناس والأخرى لاهوتية ، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين ، وهو بذلك يخالف النسطوريين . لأنهم يقولون : أن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين ، بل من العنصر الانساني وحده ، ويخالف قرار أفسس الثاني الذي يقول أن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتي من الروح القدس ، ومن مريم العذراء مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة ، وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة .

فان المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا ، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع .

عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريركهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا ، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذي أصدر هذا الحكم ، وأعلنوا رضاهم ببقاء بطريركهم رئيساً عليهم ، ولو أنه محروم مشجوب ، وأن ايمانه ومعتقده هو

عين ايمانهم ومعتقدهم ، ولو خالفه فيهما جميع أباطرة القسطنطينية ، وبطاركة رومية ، ولقد أعتبر المصريون أن الحكم الذي صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية ، مجحف بحقوقهم السياسية ، ولو أنه حكم ديني صرف » .

ولقد أشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطريركاً يعين على غير مذهبهم ، وعلى غير رغبتهم ، واستمروا على غضبهم ، فصاروا ينتقضون الحين بعد الحين ، كلما لاحت لهم الفرصة ، وديسقورس لم يمنعه النفي من أن يدعو المسيحيين الى اعتقاده في منفاه .

ويقول ابن البطريق : « لما نفى سار الى فلسطين ، وبيت المقدس فأفسد دين كل من بفلسطين وبيت المقدس ، حتى قالوا بمقالته » .

المصريون يرفضون تعيين بطريرك على غير مذهبهم :

٨٩- ولقد كان الاختلاف يشتد كلما عين الرومان بطريركاً ، فان المصريين يرفضونه محتجين بأنه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم ، ويجب أن يكون بطريركهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذي أرتضوه ديناً ، وباختيارهم ، فكان بعض الأباطرة يأخذهم بالعنف ، وأولئك هم الأكثرون ، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة ، فيترك لهم الحرية في اختيار بطريركهم ، والاطمئنان الى مذهبهم ، وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحياناً على نهج من الهوادة والرفق ، وأحياناً كثيرة على شطط وعنف .

يعقوب البرادعي ونسبة المذهب المصري اليه :

وفي هذه الأثناء يتغلغل في ربوع الدولة الرومانية الدعاة الى المذهب

المصري والدعاة الى المذهب الروماني أو مذهب رومية مقر الأباطرة أو المذهب الملكي كما سماه العرب من بعد .

ولقد ظهر للمذهب المصري داعية قوي الشكيمة قوي العارضة ، بليغ الأثر ، اسمه يعقوب البرادعي ، قد أخذ يجول في وسط القرن السادس الميلادي في البلاد الرومانية الى مصر ، يدعو الناس الى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ، ويبث ذلك المذهب في نفوسهم ، ويدخله في قلوبهم ، وسلك في سبيل ذلك المخاطرة والجرأة ، لا يأبه لقوة مهما تكن ، ولا لذي خطر مهما يكن شأنه .

وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « قيل أنه رسم ٨٩ أسقفاً ، وألوفاً من الكهنة والقسوس ، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون الى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعي زعيم هذا الحزب .

ولكن من الخلط الكبير ، والخبط الذي يدل على الجهل اطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ، لأن مذهبها نشأ قبله ، وهو تبعه ، اذ لا علاقة لها بيعقوب ، أما اذا سميت الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية فأنت مصيب غير مخطىء ، لأن هذا الاسم صار علماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الإسلامي ، وهو اسم عربي الأصل مشتق من كلمة ملك ، ومعناها الذين ينحازون الى الملك ، أو الأمبراطور الروماني مذهباً وسياسة » .

انفصال الكنيسة المصرية نهائياً :

٩٠- ولقد كان قرار مجمع خليكدونية هو السبب في انقسام الكنائس ، أو بعبارة أدق هو السبب في انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية ، ولقد لخص صاحب كتاب تاريخ المسيحية في مصر

عقيدة الكنيسة المصرية فقال : « كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت ايمانها من كيرلس ، وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية ، والسريانية الارثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس ، وأن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . فصير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط ، والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال ، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة » .

هذه هي قرارات تلك الكنيسة ، وهي تخالف ما تقرر في مجمع خليكدونية كما علمنا .

المجامـــع الباقيـــة

المجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة :

٩١- عنينا ببيان المجامع الأربعة السابقة ببعض التفصيل ، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الاطناب ، لأنها المجامع التي قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة .

فأولها قرر ألوهية المسيح ، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس ، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الانسان والاله ، لا الانسان فقط ، وأن مريم ولدت الاثنين ، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين ، لا طبيعة واحدة متحدة ، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين أجمعين ، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمعاً عاماً في نظر المصريين ، والكنائس التي تنهج نهج كنيستهم .

والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكوني كما يعبرون ، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة رومة ، أو انشقاق كنيسة روما عليها .

وانا نشير الى هذه المجامع اشارة ، ولا نعرج عليها بتفصيل لذلك ، ولأن قراراتها كانت في فروع جزئية لا تتصل بلب التثليث إلا في بعض المجامع ، وبقدر يسير ، لا يمس الجوهر ، ولا يتغلغل في صميمه ، وقد نعرض لهذا بقليل من التفصيل .

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ ، ويسمى المجمع القسطنطيني الثاني .

المجمع القسطنطيني الثاني وسبب انعقاده :

ويذكر ابن البطريق أن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة أعتنق فكرة تناسخ الأرواح ، وسار فيها الى أقصى مداها . حتى لقد قال أنه ليس هناك قيامة ، وبسبب أن بعض الأساقفة قد زعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة ، بل كان خيالاً ، فاجتمع لذلك هذا المجمع ، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة ، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة ، ولعنهم وطردهم من زمرة المسيحيين ، ولم يكتفوا في اجتماعهم بإصدار قرارهم في هذه الأمور ، بل ثبتوا قرارات المجامع السابقة ، ومنها قرار مجمع خليكدونية ، وبذلك ثبتوا عقيدة كون المسيح ذا طبيعتين ، واكدوا انكار الطبيعة الواحدة التي اعتنقتها كنيسة مصر . ومن والاها من المسيحيين .

المارونيـــــة :

٩٢- وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون في القرن السابع الميلادي سنة ٦٦٧ كان يقول ان المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد ، ولكن يظهر أن هذه المقالة لم ترق في نظر البطارقة لذلك ، فأوعزوا الى الامبراطور أن يجمع جمعاً عاماً في زعمهم ، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين ، وذو مشيئتين ، بعد أن استوثقوا من أن الامبراطور ، واسمه يوغاقوس على رأيهم ، بمكاتبات تبادلوها معه .

فقد جاء في أحد كتبه : « نحن نقر ، ونؤمن بطبيعتين ، ومشيئتين ، وفعلين لسيدنا المسيح ، وأقنوم واحد ، ونلعن من خالف هذا » .

مجمـــع القسطنطينية الثالث :

اجتمع كذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة . كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة ، وكان مؤلفاً من نحو تسعة وثمانين ومائتي

أسقف ، وبعد أن قرروا لعن وطرد من يخالفهم كشأنهم دائماً .

قالوا : « اننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الاله في أقنوم واحد ، ووجه واحد ، يعرف تماماً بناسوته ، تماماً بلاهوته في الجوهر الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد ، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدوني أن الاله الابن في آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسداً انسانياً بنفس ناطقة عاقلة ، وذلك برحمة الله محب البشر ، ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد ، ولا فرقة ولا فصل ، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الانسان أن يعمله في طبيعته ، وما يشبه الاله أن يعمله في طبيعته ، الذي هو الابن الوحيد ، الكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت لحقه لحماً كما يقول الانجيل المقدس من غير أن تنتقل من مجدها الأزلي وليست بمتغيرة ، ولكنها بفعلين ، ومشيئتين وطبيعتين اله وانسان ، وبهما يكمل قول الحق ، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها ، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين » .

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء في تاريخ ابن البطريق ، وقد أطلنا في النقل ، ليكون كلام القوم مبيناً لفكرهم كما يريدون ، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه ، أو نحيد به عن مرماه .

ولقد كان من آثار هذا القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين ، كما خرج من قبل الأقباط وكنيستهم ، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان .

مجمع تحريم اتخاذ الصور :

٩٣- وقد جاء مجمع غير عام باقرار الجميع انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ وفيه جمهور من الأساقفة ، وفدوا اليه من جهات

مختلفة وقد قرر تحريم اتخاذ الصور[1] والتماثيل في العبادة ، وحرم طلب الشفاعة من العذراء ، ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة ايربني بمدينة نيقية ، ويسمى المجمع النيقاوي الثاني سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقفاً وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين ، لا بعبادتها ، وجاء في هذا القرار : « انا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة ، والملابس الكهنوتية فقط ، بل في البيوت ، وعلى الجدران في الطرقات ، لأننا ان أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل ، وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد الى التفكير فيهم ، والتكريم لهم ، فيجب أن تؤدي التحية والاكرام لهذه الصورة ، لا العبادة التي لا تليق الا بالطبيعة الالهية » . هذا هو المجمع السابع قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاماً ، وخالفته أخرى ، فلم تعتبره كذلك .

انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية وسببه :

٩٤– ولننتقل بعد ذلك الى المجمع الثامن ، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التي ترأسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التي ترأسها كنيسة روما .

وقد علمت أن المجامع الماضية التي انفصلت بسببها فرق مسيحية

---

(١) يقرر الأستاذ المرحوم أمين الخولي في رسالته « صلة الإسلام باصلاح المسيحية » أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في أماكن العبادة الإسلامية وان أشد من ظهر بمعاداتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذي أقلق الكنيسة واتخذ العنف سبيلاً لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين وينقل عن صاحب كتاب الطرق النيقية قوله : « ان ليون فعل ذلك لأسباب سياسية اذ رغب في التقرب الى المسلمين بذلك . أو فعل ذلك تقليداً لحركة من هذا النوع قام بها في ذلك العصر المسلمون في ديارهم » ، ويقول الأستاذ أمين الخولي : « والحركة الإسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل هي التي قام بها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢هـ – ٧٢٠م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) اذ كتب يزيد الى حنظلة ابن صفوان ، والي مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه » .

كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح ، ولم يتعرض أحد للروح القدس ، ومن أي شيء انبثق ، حتى أثار بطريرك القسطنطينية كيف كان انبثاقه ، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده ، فعارضه في ذلك بطريرك رومة قائلاً : « ان انبثاق الروح القدس كان من الآب والابن معاً ، ولم يكن من أحدهما ، وكل فريق عاضد رأيه بجمع قد جمعه ، وكلاهما قد أعتبر هو ومشايعوه مجمعه عاماً ملزماً للآخر ، ومجمع الآخر خاصاً غير ملزم ، وكل لعن الآخر وطرده ، وأعتبره محروماً مطروداً من حظيرة المسيحية ، كشأنهم عند كل اختلاف .

اعلن بطريرك القسطنطينية رأيه ، وهو أن الروح القدس أنبثق من الآب فقط ، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسيه من غير ارادة رئيس الكنيسة بروما ، وبعد أن دس لسلفه ما أبعده عن كرسيه . فاجتمع في القسطنطينية مجمع بعد عزل البطريرك الذي ناوأ روما سنة ٨٦٩ ، وأصدر قراراً يتضمن البت في ثلاثة أمور :

أولها : كون أنبثاق الروح القدس من الآب والابن .

ثانيها : أن كل من يريد المحاكمة في أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى الى الكنيسة بروما .

ثالثها : أن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التي يقوم بها رئيس كنيسة روما .

وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عندهم سنة متبعة . وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمه فوسيوس ، وحرمانه هو وأتباعه .

استطاع فوسيوس هذا أن يعود الى منصبه ، فلما عاد اليه كان أول ما صنعه أن عقد مجمعاً آخر في القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، ويسمى هذا المجمع الشرقي اليوناني ، كما يسمى الأول الغربي اللاتيني ، وقد قرر فيه

رفض كل ما قرره المجمع الأول ، وقرر أن أنبثاق الروح القدس من الآب فقط ، وقد صار كل مجمع يعتبر عاماً عند مشايعيه . كما يعتبرون الآخر خاصاً ، بل باطلاً غير ملزم ، وكل يكفر الآخر أو يفسقه « **وكل حزب بما لديهم فرحون** » .

٩٥- كان هذان المجمعان هما السبب في انقسام الكنيسة الى شرقية يونانية ، وغربية لاتينية ، ورئيس هذه الكنيسة الغربية هو البابا ، وهو مستقل بسياستها وله السلطان على كل الطوائف المنقادة الى تعاليمها .

الكنيسة الغربية أم الكنائس :

وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول في زعمهم ، ويزعمون أنه كبير الحواريين ورئيسهم ، ويقولون أنه رأس هذه الكنيسة ، والبابوات خلفاؤه من بعده . وتسمى الغربية لكون سلطانها في بلاد الغرب ، ويقول صاحب كتاب سوسنة سليمان : « وهي تدعى أنها أم الكنائس ، ومعلمتهن وربما حق لها ذلك . لجهة التفاسير التي تبنى عليها أصول التعاليم التقليدية ، ونظامات المجامع ، وترتيبها ، وهي أيضاً التي تأمر بها . وتمتد شوكتها على الخصوص في بلاد ايطاليا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وشعوبها منتشرة في أقطار الأرض .

وأما الكنيسة اليونانية ، ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية ، فأكثر مشايعيها في الشرق وسلطانه فيه ، وهي تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية في كثير من التقاليد المسيحية ، ولكنها تخالفها في أنبثاق الروح القدس . فتقول أنه من الآب فقط ، كما بينا ، ولا تعترف إلا بالمجامع السابقة على المجمع الذي أوجد الانفصال ، كما لا تعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرياسة .

ولكن لمرور الزمن ، وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه ، وعند الملوك ، ولكثرة معتنقي مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان ، ويليه في الرتبة بطريرك القسطنطينية ، والمشايعون لها في بلاد روسيا واليونان والصرب ، وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء .

المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا في نظر الكنيسة الغربية :

٩٦- قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت ، والمجامع الآتية كلها مجامع غير عامة في نظر الكنيسة الشرقية ، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من أتباع الكنيسة الغربية فقط ، ولذلك لا تعتبر تلك المجامع عامة إلا في نظر الغربية .

فالمجمع التاسع انعقد في رومة سنة ١١٢٣ ، وأعظم قراراته شأناً الحكم بأن تعيين الأساقفة ، ليس من شأن الحكام ، بل من عمل البابا وحده .

محاولة تقريب بين الكنيستين :

والمجمع العاشر انعقد في رومة أيضاً سنة ١١٣٩ وكان اعضاؤه ١٠٠٠ عضو ، وقد حاول هذا المجمع ازالة الفرقة بين الكنيستين ، فلم ينجح .

والمجمع الحادي عشر الذي انعقد في رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام التأديب الكنسي ، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلثي عدد الكرادلة .

وكان في هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر في العشاء الرباني الى جسد المسيح ودمه ، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ .

حتى جاء المجمع الثاني عشر سنة ١٢١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائياً ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه ، وهو مبدأ ان الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء .

وتتوالى بعد ذلك المجامع الكاثوليكية لأغراض عامة أو أقليمية ، وفي بعضها تتجدد محاولة توحيد الكنيستين المتصلتين ، وفي بعضها يتقرر التنقيب عن القلوب ، ومحاربة الخارجين عن التعاليم المسيحية .

وأهم هذه المجامع وأعظمها أثراً ، وأقواها عملاً المجمع التاسع عشر الذي انعقد في تريدنتو والذي دام انعقاده من سنة ١٥٤٢ الى سنة ١٥٦٣ . وفيه الرد على البروتستانتية

وختام هذه المجامع هو المجمع المتمم العشرين المنعقد في رومة سنة ١٨٦٩ وقد أثبتوا فيه العصمة للبابا .

وقد قال في ذلك صاحب سوسنة سليمان : « وقد نشأ في ذلك انقسام في الطوائف الكاثوليكية ببلاد أوربا والشرق ، والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالي أوربا سموا أنفسهم الكاثوليكيين القدماء ، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة » .

الفـــرق المسيحيـــة

٩٧- من البيان الذي سقناه في المجامع ، وما انعقدت بسببه من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتنقيها ، والغالب على كل نحلة سواه من نحلها . وانك لترى ذلك واضحاً فيما بيناه من أن أريوس عندما ظهر مقاوماً فكرة ألوهية المسيح ، ومنازعاً كنيسة الاسكندرية في ذلك المبدأ الذي كانت تبثه في النفوس وهو ألوهية المسيح وتنادي به على رؤوس الأشهاد ، بينما كان أتباعه في مصر وفلسطين والقسطنطينية ، (وهذه مواطن المسيحية في ذلك الابان) أكثر عدداً وأقوى مكانة ، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس ، وكل ذلك مع أن قسطنطين الامبراطور الحاكم بأمره الذي لا معقب لحكمه كان يشايع فكرة ألوهية المسيح ويناصرها ، ويحميها ويؤيدها ، كما بينا عند الكلام في مجمع نيقية اذ حمى القائلين أن المسيح فيه ألوهية بحمايته ، ووضعهم تحت ظله ، وأمدهم بالجاه والسلطان .

واذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد ، ويصح لنا أن نقسم عصور المسيحية الى قسمين :

عصر التوحيد : ونجعل نهايته الزمن الذي انعقد فيه مجمع نيقية ، أو ما ولى ذلك الزمن بقليل ، اذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح ردحاً غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية .

والعصر الثاني : عصر تأليه المسيح ، وذلك العصر يبتدىء بعد مجمع نيقية ، وبعد ان استطاع أباطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد في وسط المسيحيين ، ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

واذن فمن الحق علينا أن نراعى هذا التقسيم عند الكلام في الفرق القديمة عند المسيحية ، فنقسم تلك الفرق الى قسمين :

فرق ظهرت في عصر التوحيد ، وربما كان وجود بعضها قبل مجمع نيقية أرهاصاً لعهد التثليث .

وفرق ظهرت في عصر تأليه المسيح وعصر التثليث .

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التي ظهرت قبل عصر النهضة في أوربا أي قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التي ظهرت بعد عصر النهضة ، وهي التي ظهرت في عهد الاصلاح الديني ، وما والاه .

الفرق التي ظهرت في عصر التوحيد :

٩٨- والفرق التي ظهرت في عهد التوحيد كثيرة ، وبعضها كان مستمسكاً بالتوحيد ، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخي وكما يستفاد من ثنايا التاريخ ، وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد ، حتى كان وجوده تمهيداً للتثليث أو سيراً ببعض الخطوات في سبيله .

وأظهر الموحدين أريوس وأتباعه ، وقد كانوا كثيرين ، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطارقة ، وكان رأيه منتشراً في مصر والشام ومقدونية ، وهي مواطن المسيحية كما علمت .

فرقـــة أريـــوس :

يقول ابن حزم في بيان فرقة أريوس : « والنصارى فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق

السماوات والأرض ، وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس » .

وهذا الكلام يحتاج جزؤه الأخير الى نظر ، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب أريوس ، وقد بينا عند الكلام في مجمع نيقية ، أنه هو الذي تدخل بنفوذه وسلطانه ، فعزل أنصار لاهوت المسيح ، وأعتبر المجمع مكوناً منهم دون سواهم ، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين ، فرفض رأي الكثرة ، وعقد مجمعاً مؤلفاً من ثمانية عشر وثلاثمائة ، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة أريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة .

نعم ان الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبه الى رأيهم ، وضمه الى مذهبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطاناً ، فمال اليهم أخيراً ، أو اظهر الميل ، وان كان لم يعمل على نصرة مذهبهم ، ولم يعقد مجمعاً ليقرر رأيهم ، كما فعل بالنسبة لغيرهم ، وأقصى ما عمله أنه رد المحرومين الى حظيرة المسيحية ، وأعاد المنفيين من منفاهم ، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية . ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة ، اذ رآهم كثرة المسيحيين الغالبة ، وأقوالهم هي الشائعة الرائجة ، فأظهر الميل اليهم حتى لا ينقضوا عليه .

أصحــاب بولــس الشمشاطــي :

٩٩- ومن الموحدين الذين ظهروا أصحاب بولس الشمشاطي ، ويقول فيه ابن حزم : « كان بطريركاً بأنطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وأنه انسان لا الهية فيه . وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ، ولا روح القدس .

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيداً خالصاً ، وأن عيسى ليس إلا رسولاً من رب العالمين ، وأنه كان اذا عرض له البحث في كلمة الله ، وروح القدس أمسك عن ذلك ، ولم يخض فيه ، وتوقف واعتصم بذلك .

ويظهر من هذا أن هاتين الكلمتين كانتا المثار الذي يثير منه أنصار ألوهية المسيح الشبهات حول التوحيد ، ليلقوا الريب في نفوس معتنقيه ، فاذا استولى الريب عليهم ألقوا أمانيهم ، ووجدوا من الحيرة والاضطراب ما يتخذونه ذريعة الى ما يريدون .

ويقول ابن البطريق في بيان مذهب بولس هذا : « ان المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الانسي ، صحبته النعمة الالهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمي ابن الله ، ويقولون ان الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية ، وهم البوليقانيون » .

هذا ما قاله ابن البطريق في معتقد بولس الشمشاطي ، وهو لا يختلف في جوهره عن كلام ابن حزم الأندلسي فيه ، وان اختلفت العبارات ، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الانسي هو ما عبر عنه ابن حزم بالرسالة ، والنعمة الالهية التي حلت فيه هي الوحي واختياره ليكون رسول الله الى الناس يهديهم ، والنبوة التي جاءت في عبارة ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كناية عن المحبة ، ولعل بولس لم يجرها على لسانه ، أو لم تجيء في بيانه ، ولكن ابن البطريق المسيحي المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره ، وان كان المراد غير موافق للمثلثين .

دخـــول الوثنيـة على التوحيـد :

١٠٠- وكان بجوار الموحدين الذين كانت أقوالهم السائدة المنتشرة في ربوع المسيحيين ، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا في المسيحيين وفيهم بقايا الوثنية ، ولا تزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه ، ففهموا المسيحية على ضوء ما عرفوه أولاً . واهتضموا المسيحية متمثلة في نفوسهم بما استكن في تلك النفوس من آراء ومعتقدات سابقة ، وان ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل المختلفة التي ظهرت في المسلمين في ابان الفرقة التي تلت مقتل الخليفة الثالث والرابع . وما أدخل من آراء ونحل في عصر يزيد ومن وليه .

ولكن الإسلام بنور القرآن الكريم وحفظه ، وهدى النبي ﷺ ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة ، وما كلأ الله به هذا الدين المتين - قد نفى عنه الدخل وذهب الزبد جفاء ، وبقى الدين ، كما بعث نبيه عليه الصلاة والسلام صافياً من غير رفق ولا تكدر .

أما في المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما بيناه في الكلام عليها ، واختلط فيها الغث والسمين والطيب بالخبيث ، وضلت العقول ، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح ، وذهب الكوكب الساري الذي يضيء وسط الدجنة الحالكة ، وهو كتاب مبين لا يأتيه الباطل ، ولا يتطرق اليه الريب ، يكون فيصل التفرقة بين المسيحية الحقة ، والأساطير الباطلة التي أفسدتها .

أتبـــاع مرقيـــون :

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم ، كما تبرز رءوس الشياطين وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع وجاءت على نحل مختلفة ، وأهواء متباينة ، ونزعات متضاربة ، وبأسماء كثيرة .

فمنهم من كان يقول أن هناك آلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهم ، وهم أتباع مرقيون ، ولعل هذه النحلة من آثار المجوس ، لأنهم هم الذين يقولون باله الخير وإله الشر .

ولقد قال ابن البطريق في هذه النحلة وأصحابها : « وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس » فالمنتحلون لهذه النحلة يزعمون أن مرقيون داعيتها والمنادي بها حواري من حواريي عيسى عليه السلام ، بل كبير الحواريين وشيخهم ، والمقدم فيهم ورئيسهم .

البربرانيـــــــة :

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول ان المسيح وأمه الهان ، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالت كلماته في قوله تعالى مبيناً ما يكون بينه سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام من قول يوم القيامه ، قال تعالت كلماته : « **وأذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم** » ولعل فريقاً منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم .

نحـــــل آخـــــر :

ويقول ابن البطريق في بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمع نيقية : ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية ، وهي مقالة

بابليدوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وانما مر في بطنها ، كما يمر الماء في الميزاب لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته وهي مقالة اليان وأشياعه .

ضياع التوحيد بسبب تحريف الكتب :

١٠١- هذه هي بعض المقالات والأهواء والنحل التي جاءت في عصر التوحيد ونقت صفاءه ، وكانت نكتاً سوداء في وسط المسيحية الحق النضرة ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة ، ويبقى الأصل سليماً نقياً ، لم يتأشبه شيء من المفاسد ، ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من أي جانب ، ولا يتطرق اليه الظن والاحتمال ، ليكون ميزاناً للحق والباطل ، وليكون مقياساً تقاس به الآراء ، وليكون مرجعاً يرجع اليه المختلفون .

ولكن الاضطهادات التي نزلت بالمسيحيين ، ومصادرة الكتب وتحريفها بأمر الرومان ، والأيدي العابثة المفسدة ، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعتريها الشك والريب ، ومن وراء ذلك نفذت الأهواء والأساطير الى القلوب ، وأخذت تنال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد ، وكتاب ثابت السند .

فكل نحلة تدعى لا تجد رداً لها من نص ، وهي تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص ، بل بقوة الداعي ومقدار لحنه بالحجة الباطلة والصحيحة ، ومقدار نشاطه وبيانه وسعة حيلته ودهائه ، ودربته على جذب الجماهير .

ولقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح أبلغ تقديس ، فكانت مهارة الدعاة وقوتهم البيانية متجهة الى هذه الناحية ، يزيدون في تقديس المسيح فيزيدون كلامهم قبولاً لدى العامة ، ثم انتقلوا من التقديس

المعقول الى الغلو المرذول ، فغالوا حتى عدوه الهاً .

وهكذا أخذت العقيدة تفسد ، وكان العامة بين حبلين قويين ، وكل حبل في يد عصبة من أولي القوة ، فحبل التوحيد ، ومعه العقل ، ومعه الأصل ومعه السيادة للتوحيد ، وحبل آخر قد أخذ يجتذب العامة اليه بقوة ، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التي يحبونها ، وأرضى شهوتهم فيها ، وهي ناحية تقديس المسيح عليه السلام ، وأخذ يلقي تعاليمه في النفوس ، وقد وضعها في ذلك اللون الشهي ، وذلك الطعم المستساغ .

العامل الثاني : عامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تأليه المسيح وادنائه من ذوي السلطان ، وتمكينه من الرقاب ، وتغريب من لا يقول هذه المقالة ، واضطهاده ،وأبعاده عن حظيرة المسيحية ، ولعنه وطرده وتصويره للناس بصورة من لا يقدس المسيح ، ولا يرجو له وقاراً واجلالاً .

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعة في الاستدلال والتي توقف المغالين عند حد الاعتدال . وقد كانت كفة التوحيد هي الراجحة ، حتى بعد مجمع نيقية ، ولكن جاءوا بعد ذلك ، وأخفتوا صوت المنادين بالتوحيد وحيل بينهم وبين ما يدعون اليه . ولم يمكنوهم من أن تصل دعوتهم الى العامة فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون إلا جانباً واحداً ، وخاضعين لعامل واحد ، وهو الخروج عن نطاق التوحيد . فتم للحكام والقسيسين ما أرادوا واختفى دين المسيح عليه السلام . وقام دين البطارقة والقسيسين .

الفرق القديمة في عهد التثليث

١٠٢- بعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية ، وان كان أتباعه أكثر عدداً ، وأعز نفراً ، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضي على التوحيد بذلك المجمع ، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة في الكنائس ، ولا تجعل صوتهم يصل الى الشعب بالنفي والتشريد ، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد ، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد ، وفعل الزمن فعله ، وتغلبت الظلمة على النور ، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع . وعندئذ كانت الفرق التي تظهر بعد ذلك في ظل ألوهية المسيح في الجملة ان استثنينا مقدنيوس وفرقته .

فرقـــة مقدونيـــوس :

وأول فرقة ظهرت في ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا ، فقد أنكرت أن يكون روح القدس الهاً ، وقاومت ما ترمي اليه الكنيسة العامة من فرض تلك الألوهية ، ودعوة الناس اليها ، وحثهم على اعتناقها ، ولعل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا يزالون يعتنقون التوحيد ، ويتابعون في ذلك أريوس وسائر الموحدين ، وان كانت الغاية لغيرهم ، فهاله أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ويثنون بتأليه الروح القدس ، فجاهر بانكار الثاني ، لأنه لم يعد في قوس الصبر منزع .

يقول ابن البطريق : « وفي عشر سنين من ملكه (قسطنطين ابن قسطنطين الثاني) صير مقدونيوس بطريركاً على القسطنطينية ، وكان يقول : ان روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات » .

ولكن مقالته لم تمت بموته ، بل كان له أشياع وأتباع خصوصاً من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية ، وأن أصبحوا في الجملة لا سلطان لهم .

لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ، وقد ذكرنا بعضاً من قراراته ، وكان المقرر والمناظر والمجادل في هذا المقام بطريرك الاسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة ، كما نوهنا آنفاً ، ويسمى المقدونيون الأبولنياريين فقد جاء في كتاب سوسنة سليمان في بيان المجمع القسطنطيني : « المجمع القسطنطيني المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولنياريين ، وهم المقدونيون المنكرون للاهوت الروح القدس » .

ويعتقد الكنسيون أن إنكار ألوهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين ، فيقول صاحب تاريخ الكنيسة ، وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأي أريوس) أرطقة أخرى لم تكن أقل مناقضة للثالوث الأقدس فكانت تنكر ألوهية الروح القدس ، وكان منشئها مقدونيوس ، وهو نصف أريوسي قد اختلس كرسي القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسي ، ولم تكن له شهرة خصوصية في بهوة الأسجاسي التي أحدثها الأريوسيون » . وهذا زعم له نصيب من الواقع ، لأن الذين ينكرون ألوهية المسيح ، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقرون بألوهية الروح القدس .

ولكن يجب أن يلاحظ أنه في الوقت الذي أنكر فيه مقدونيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت في مجمع عام ، وقد يكون موضع حديث البطاركة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس إلهاً ، فتصدى مقدونيوس لانكار ذلك ، وتلقى الناس كلامه بالقبول ، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنين .

النسطوريـــون :

١٠٣- هذه النحلة تنسب الى نسطور ، وقد كان بطريرك

القسطنطينية ومكث في هذا المنصب أربع سنين وشهرين ، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد الهاً ، بل ولدت فقط الانسان ، وهو بذلك يرى أن الأقنوم الثاني ، وهو الابن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثلثين ، بل كان يرى أن مريم ولدت الانسان فقط ، ثم اتحد ذلك الانسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني ، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئاً واحداً ، أو ذلك الاتحاد ليس اتحاداً حقيقياً ، بل اتحاداً مجازياً . لأن الاله منحه المحبة ، ووهبه النعمة ، فصار بمنزلة الابن ، وهذا التخريج لا شك يؤدي الى أن المسيح الذي خاطبهم وكلمهم ، وحوكم وعوقب في زعمهم ، لم يكن فيه عنصر الهي قط ، فلم يكن إلهاً ولا ابن الاله .

وقد نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية تقرر أن كلام نسطور معناه ، أو يلزمه منه حتماً ، انكار ألوهية المسيح .

ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الاسكندرية ، ويوحنا بطريرك أنطاكية في ذلك الابان ، ليعدل عن رأيه ، فلم يصغ اليهما ، ولم يجب طلبهما ، فانعقد مجمع أفسس سنة ٤٣١ ، وقرر لعنه وطرده ، واثبات أن مريم العذراء قد ولدت الانسان والاله .

وقد بينا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع .

ولقد أبعد ذلك نسطور عن منصبه ونفى ، فصار الى مصر وأقام في أخميم الى أن مات .

ويقول ابن البطريق : « كانت مقالة نسطور قد اندثرت ، فأحياها من بعده بزمان برصوما مطران نصيبين في عهد قباذ بن فيروز ملك فارس ، وثبتها في الشرق ، وخاصة أهل فارس ، ولذلك تكاثرت النسطورية في الشرق ، « في العراق والموصل والجزيرة » . ولا يزال الى الآن في الأماكن

التي يذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب .

ويقول صاحب سوسنة سليمان : « ان النسطوريين في هذا العصر يسمون الكلدان يسكنون خاصة فيما بين النهرين ، والبلاد المجاورة لهما ، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم ، غير أنهم يمتازن عن باقي المذاهب باعتقادهم ان نسطوريوس حرمه مجمع أفسس ظلماً . أضف الى ذلك اعتقادهم بأنه لم يكن في المسيح طبيعتان بل أقنومان أيضاً ، وكان يحسب هذا المعتقد في الزمن القديم ضلالاً مبيناً ، وأما في هذا الزمان فيحسبه العلماء ، حتى الكاثوليك الرومانيون ، غلطاً لفظياً لا معنوياً لأن هؤلاء الكلدانيين يعتقدون أن في المسيح اقنومين ، كما ان فيه طبيعتين ، ويقولون أيضاً بأن هذين الأقنومين ، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما رؤية واحدة » .

وهذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما ان الكنيسة الرومانية التي كانت تشدد في القرون الخالية في طرد كل من يخالف معتقدها ، وتعده كافراً لا يلج الايمان قلبه قد تساهلت في هذه الأعصر ، فوسعت صدرها للمخالفين لها ،وتأولت لهم ، لتدخلهم في حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرد واللعن والتكفير .

ثانيهما : أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادىء نسطور ، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية ، وكما قرر ابن البطريق لا يرى أن الأقنوم الثاني مازج المسيح قط ، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة ، واستنبطنا كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الالهي خلواً تاماً ، وهو يصرح بأن مريم ولدت الانسان فقط ، بينما غيره يقرر أنها ولدت الاله والانسان ، وهذا اختلاف

جوهري في الحقيقة والمعنى لا في الشكل واللفظ ، واذا كان النسطوريون في هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت في الناسوت كما يقول غيرهم ، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور .

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا في بلادهم بلاد العراق والموصل ، ومنهم طائفة تقيم في الهند ، وأخرى تقيم في بلاد العجم ، وهم جميعاً يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به عند غيرهم من الكنسيين ،وليس عندهم من تقليد إلا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل، والامتناع عن الزواج ، وذلك منذ سنة ١٨٣٠م وهذا كما جاء في كتاب سوسنة سليمان .

اليعقوبيـــون :

١٠٤– هم أتباع يعقوب البراذعي ، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الاله بعنصر الانسان وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت ، ونسبة ذلك المذهب الى يعقوب البراذعي لأنه من أنشط الدعاة اليه ، لا لأنه مبتدعه ومنشئه ، فان ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا ، فأن أول من أعلنه بطريرك الاسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي .

وبسبب ذلك الاعلان انعقد مجمع خليكدونية ، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية . أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي ، ويقرر صاحب سوسنة سليمان في اطلاق اسم اليعقوبيين على صحاب هذا الرأي « يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة الى يعقوب البراذعي الذي أعاد هذه الشيعة ، ورتبها في القرن السادس للتاريخ المسيحي ، بعد أن كادت تتلاشي » .

وقد فصلنا الكلام في هذه النحلة والأدوار التي مرت عليها عند الكلام

في مجمع أفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص .

وفي مجمع خليكدونية فلا نعيد ما ذكرناه ، حتى لا نقع في التكرار الممل . والذين يقولون إن المسيح ذو طبيعة واحدة ، ينقسمون إلى آسيويين وأفريقيين ، ولكل قسم رياسة دينية خاصة به .

فرئيس الآسيويين هو بطريك السريان ، ومن هؤلاء الآسيويين من اعترفوا برياسة الكنيسة الكاثوليكية ، فقبلهم وان استمروا على رأيهم .

ورئيس الأفريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة ، و يتبعه في هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون ، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية ، وهو يعين لهم اسقفا يسوسهم .

ومن الذين يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة ـ و يتحدثون مع الكنيسة القبطية في ذلك الاعتقاد ، ولكن لهم تقاليد دينية وطقوس ، ولهم بطاركة يرأسونهم ، ولا يندمجون في الكنيسة القبطية ، ولا كنيسة السريان بآسيا ـ الأرمن .

المــارونيــــــــة :

١٠٥ ــ هم أتباع يوحنا مارون ، وقد اشتهر يوحنا هذا برأيه سنة ٦٦٧ ، ودعا إليه وشايعه بعض القسيسين فيه ، ومعهم بعض من مسيحي آسيا ، وهو أن المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو ارادة أو مشيئة واحدة ، ومن أجل هذه النحلة الجديدة أجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد ، وقرر حرمان مارون ، ولعنه وتكفيره وكل من يذهب مذهبه ، و ينتحل نحلته ، وقد أشرنا إلى ذلك المجمع ، ونقلنا لك قراره في المذهب ، فلا نعيد نقله .

و يظهر أن المنتحلين لهذا الرأى لم يكونوا ذوي شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد ، فقد نزلت بهم اضطهادات شديدة

لـم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار ، فلم يجدوا لهم مأمنا يعتصمون به إلا بـعـض الـبـلاد في جـبـل لـبـنـان ، فـاعتصموا بها ، وقد استمروا على اعـتـصـامـهـم و بـعـدهـم ، حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية وقربتهم منـهـا ، وأعـلـمـت الحـيـلـة والـسـيـاسـة ، حـتـى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها على أن يبقوا على رأيهم ، ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد ، وما زالت هذه الطائفة متوطنة بـجـبـل لـبـنـان ، ولها بطريرك خاص . وأن كانت تقر بالرياسة لبطريك روما .

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية
أساس انقسام الكنيسة الى شرقية وغربية

١٠٦ ــ كان فيما ذكرنا أعظم الانقسامات القديمة شأنا ، وأبعدها أثرا، ان استثنينا الكنيسة القبطية ، انقسام الكنيسة الى يونانية ولاتينية وما يتبع ذلك من الانقسام من انشقاق في المسيحية كلها ، وما تفرع عن الاولى من فروع وفرق ، وانا نكتفي بهذا القدر من القول في الفرق القديمة التي ما زال منها بقايا الى أيامنا الحاضرة ، ونختم القول فيها بانقسام الكنيسة الى يونانية شرقية ولاتينية غربية ، وقد نوهنا الى الانقسام عند الكلام في المجامع ، وأشرنا الى أسبابه بالاجمال .

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التي آلت اليها رياسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة ، وكنيسة رومة التي آلت اليها رياسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران :

احدهما ــ يتعلق بالاعتقاد ــ وهو أن كنيسة القسطنطينية ومن والاها من بعد اعتقدوا أن الروح القدس من الآب وحده ، لا من الآب والابن ، وكنيسة روما ومن والاها قد اعتقدوا ان الروح القدس منبثق من الآب والابن معا ، وعقد كل فريق مجمعا شايع اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به ، وكان المجمع المشايع لرومة سنة ٨٦٩ ، والمشايع للأخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩.

ثانيهما ــ لا يتعلق بالاعتقاد ــ ولكن يتعلق بالرياسة الكهنوتية ، أهي لكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة ؟ لقد قرر المجمع الذي شايع رومة أن تكون لرومة ، فرئيس كنيستها هو الحبر الأعظم ، والرئيس الروحي للمجمع ، وقرر المجمع الذي شايع القسطنطينية رفض تلك الرياسة وعدم الاعتراف بها ، و يعتبرون رئيس القسطنطينية رئيسا عاما للكنائس .

ولقد تبع هذا الاختلاف في هاتين المسألتين الرئيسيتين خلاف في مسائل أخرى أوجدها تتابع السنين واستمرار الشقاق ، فقد كثرت أوجه الاختلاف في مسائل فرعية منها :

١ ــ استعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز ، فان ذلك أقرته الكنيسة الغربية ، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية .

٢ ــ أكل الدم والمخنوق ، فان الكنيسة الغربية أباحته وهو مخالف لمجمع الرسل في أورشليم الذي انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة .

٣ ــ أكل الرهبان دهن الخنزير ، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

٤ ــ لبس الأساقفة الخواتم في أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم .

وجاء في حاشية لكتاب سوسنة سليمان ما نصه : « يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطاركة ، وربما كان ذلك لكونها ما كانت تحددت وقتئذ كقاعدة دينية في كنيسة رومة ، كالمطهر الذي لم يثبت الا في مجمع فلورنسا المنعقد في سنة ١٤١٩ ، ثم أوجب قبوله على الكنائس الغربية المجمع التريدنتينى في القرن السادس عشر.

أما الفرق بينه و بين عقالات جهنم التي يقررها الروم ، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطيء بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه .

أما عقالات الجحيم ، وهي نظير حبس يقيم فيه الخطاة الى يوم الدينونة الذي به ينالون القصاص الأبدي في جهنم ، والصلوات التي يقدمونها لأجل الموتى ، يعتقدون انها تلطف نوعا أحوال هذا الحبس عليهم تلطيفا وقتيا فقط .

وكذلك منع الشعب من الاشتراك في الكأس اذا لم تثبته كنيسة رومية الا في مجمع كمستانس سنة ١٤١٥ » .

تقادم الزمن يوسع الخلاف :

١٠٧ ــ كان كلما تقادم الزمن على النقطة التي ابتدأ منها الخلاف اتسعت فرجاته ، وكبرت زاو ية الانفراج ، وكلتا الكنيستين ذات بأس وقوة ، وكانت في القديم لها دولة تحميها ، اذ كانت دولة الرومان منقسمة الى شرقية وغربية ، فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما أكد الفرقة وقوى الانقسام .

ولقد كان يأتي الفينة بعد الأخرى صوت يدعو الى الوحدة والالتئام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام ، فتعقد لأجل هذا مجامع ، وترسل الوفود . ولكن ما ان يتلاقى المتخاصمان ، حتى تعاد أسباب النزاع جذعا، اذ كل واحدة ترغب في أن تنزل الاخرى عن رأيها ، فتلاحى كل واحدة عما تعتقد ، فيشتد الجدل ، ويحمى وطيس القول ، فيفترقان ، وقد زادت القطيعة قوة واحتداما .

محاولة ازالة الخلاف :

حاول أحد بطارقة روما في منتصف القرن الحادي عشر أن يجمع الشتات، و يلم الشمل ، وعرض مباديء تكون أساسا للمصلحة، فرضها بطريرك القسطنطينية ، وأصدر الأ ول قرارا بحرمان الثاني ، فأصدر هذا قرارا بحرمان الوفد الذي عرض عليه الشروط .

وهكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقي ، وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، و يظهر أن السبب في ذلك ما تعتقده كل واحدة منها أن الأخرى خارجة على الدين ، ورغبة كل واحدة في أن تجتذب الأخرى اليها كما بينا .

انتقاد مسيحي للكنيسة الغربية :

و يقول في ذلك صاحب سوسنة سليمان : « ان الكنيسة الرومانية تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الاطلاق هي شيع هرطوقية خارجة منها ، ومنفصلة عن شركتها . وهذه الدعوى تصح لأ ية كنيسة أمكنها أن تثبت لذاتها الأقدمية في الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية . أما كنيسة رومة ، فليس لها في هذه الدعوى الا الاستيلاء على أمانة صندوق التقليدات .

غير أن سلامة الذوق تقتضي بأنه كلما قلت التقاليد في كنيسة من الكنائس دل على أقدميتها بالنسبة التي تزيد عليها فيما هو من هذا القبيل ، لأن التقاليد على ما يستبين من مجريات رومة قابلة للزيادة، والزيادة أحداث ، والاحداث في الدين لا ريب في أنه بدعة ، والابداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة » .

ونرى من هذا ان صاحب هذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة ما أحدثته من تقاليد ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة هرطقة كما يعبرون ، ولعل السبب في ذلك النقد ليس مجرد الحق ، بل كونه ليس من مذهبها ، والا كان كل ما نقوله مقدسا لا بدعة فيه .

١٠٨ ــ وقد بينا البلاد التي تتبع الكنيسة الغربية ، وكانت فيما مضى كل أوروبا تقريبا ، و بعض طوائف في آسيا .

بطارقة الكنيسة الشرقية :

أما البلاد التي تتبع الكنيسة الشرقية ، فأكثرها في الشرق كما أسلفنا من القول ، ولها بطاركة .

أولهم بطريرك القسطنطينية ، وهو كبيرهم و يضيفون الى لقبه وصف أنه البطريق المسكوني ، و يقول صاحب سوسنة سليمان : « انه ليس الا

لقبا تشريفيا فقط ، فليس له تسلط على غيره من البطارقة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانوني أصلا » .

و يليه في الرتبة والمكانة الدينية بطريرك الاسكندرية للأروام الأرثوذكس ثم بطريرك أنطاكية ، ثم بطريرك أورشليم ، ثم المجمع الروسي ، ثم عدة مجامع لأسقفيات مستقلة أخرى كأسقفية أثينا ، وأسقفية قبرص وغيرهما .

وشوكة تلك الكنيسة تمتد في بلاد روسيا واليونان والعرب وكثير من جزائر بحر الروم .

وقد ظهرت في روسيا التي كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفرق كثيرة بلغ عددها نحو مائتي نحلة ، وتعداد أصحاب هذه الفرق الجديدة مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليونا .

فمنهم فرقة لا ترى تعميد الأطفال ، ومنهم شيعة تحسن للنصراني ان يقتل نفسه في حب المسيح ، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار ، فيتطهروا بها ، ومنهم شيعة تلتزم الختان باعتباره كان المسيحية الأولى ، وفي التوراة التي تعتبر النصرانية مجددة لها، وهكذا تختلف النحل وتتباين ، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين .

الاسلام يظلل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية

١٠٩ ــ ذكرنا ان العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف ، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين ، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر والكنائس الأوروبية ، ونزل بمصر أشد البلاء ، ولم ينقذهم الا الفتح الاسلامي ، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام الى الآن شعر المصريون بحريتهم الدينية التي لم يستمتعوا بها من قبل ، حتى أهداها اليهم الاسلام السمح الكريم .

ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن

تنزل احداهما بالأخرى أشد البلاء ، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية الى شرقية وغربية ، واعتصام كل واحدة منهما بدولة ، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى ، فلم تقبض على ناصيتها .

ولكن لما أخذت الدولة الشرقية في الانحلال ، وخلفها المسلمون على بعض أملاكها ، وأخذوا يقصونها من أطرافها ، أخذت ترجح احدى الكفتين على الأخرى فقويت الغربية ، وصارت لها السيادة ، واعترف بطريرك القسطنطينية له بالتقدم عليه في الجلسة ، وإن لم يعترف بأنها على حق فيما يختلفان فيه ، وما اختلفا فيه من قبل ، والبلاد التي اقتطعها المسلمون كانت تنعم بالحرية الدينية كشأن المسلمين في معاملتهم لغيرهم.

ولما جاءت الحروب الصليبية ، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة كنيستها للكنيسة الشرقية آمنين مطمئنين ، لا يزعجهم اضطهاد ، ولا يرفق صفاءهم ضغط ، ثم ثنى ،أولئك الصليبيون اتباع الكنيسة الغربية ، فاستولوا على دولة الرومان الشرقية نفسها ، فأنزلوا باخوانهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون .

ولنترك الكلمة للمسيحي صاحب سوسنة سليمان ، فهو يقول :
«حرك البابا أتوسنت الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان ، فافتتحوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، وداموا متسلطين عليها الى سنة ١٢٦١م فاستعملوا ما أمكنهم من البربرية في الأراضي التي امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين ، ليخضعوا بطارقة أورشليم ، وجميع الأكليرس اليونانى بواسطة الحبس واقفال الكنائس الى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودة العرب حكام البلاد الأصليين على موادتهم ويختاروا تسلط شعب يرضى بجزيه على أن يتسلط عليهم ملك روحي طمعه وطمع قصاده لا يشبعان » .

حينئذ أحس أولئك المسيحيون بنعمة الاسلام عليهم ، ونعمة حكم المسلمين لهم ، فقد سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان، ونقبوا عن قلوبهم، وبحثوا عما تكنه الصدور، ولكن نعمة الاسلام كانت تلاحقهم، فلم ينقض زمن طويل، حتى جاءهم الاسلام في القسطنطينية وأعطاهم الأمن والدعة والقرار والاطمئنان، حتى لقد قالوا كما حكى صاحب السوسنة: «عماعة السلطان محمد الفاتح، ولا تاج البابا المثلث».

وهكذا كان الاسلام رحيما تسع رحمته المخالفين.

الفرقة الحديثة « البروتستانت » (١)

أو الاصلاح الديني

حال الكنيسة قبل الاصلاح:

شدة الكنيسة على الناس والعلماء :

١١٠ ــ اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين، و بالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة، والدعوة الصالحة، والارشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنفوس، وتمكينها من أن تتبعها، وهي حرة مريدة مختارة، بل سلكت سبيل العنف وركبت متن الشدة، فجعلت كل رأي في العلوم الكونية يخالف رأيها كفرا، ولا تدعو معتنقية الى الهداية، وترشده الى الرشاد، كما يليق برجال الدين مع من يرونه ضالا، بل تكفرلأ وهى الأسباب، وتحرق أو تعذب من تراه كافرا بلا رفق ولا هوادة.

فهذا المجمع الثاني عشر من مجامع الكنيسة وهو المجمع المسمى باللاتيرانى، الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ يقرر استئصال الهراطقة، و يعنون بذلك كل من يرى رأيا مخالفا للكنيسة، ولو كان رأيا في الكون أو طبائع الأشياء، ولم تكتف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس، وتكشف عن سرائر الناس بما أسماه التاريخ محاكم التفتيش، التي دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام، وما أزهقت من أرواح، وما سفكت من دماء، وما عذبت من أحياء.

---

(١) سمي الذين اعتنقوا مبدأ الاصلاح الكنسي وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستانت، لأنهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجا يسمى بالانجليزية برتست، فسمى الذين أمضوا القرار بروتستانت، أي المحتجين.

وان جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الاصلاح ، داعيا رجال الكنيسة إلى أخذ الناس برفق ، وحاثا رجال الدين على الأخذ بهديه كان عقابه الحرمان والقتل .

حدثت في أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب اصلاح حال البابوات ، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفا ، و ١٨٠٠ من رجال الدين ، ولكن هذا المجمع انتهي في قراراته بالأمر باحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم .

ولقد حرق وعذب في هذا السبيل علماء استشهدوا في سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة ، وضيق صدر القوامين عليها .

ومما يذكر في هذا أن أحد العلماء واسمه ابيلارد كان له رأي في تكفير المسيح عن خطيئة آدم خالف به رأي الكنيسة فقال : ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى في ذلك من تعذيب سبيلا لارضاء الله وانزل عفوه عن خطيئة الانسان ، فعفوا الله أيسر من ذلك وأقرب ، وانما لاقى المسيح ما لاقى اعلانا لما يكنه قلبه من حب الله ، وعسى أن يثير في الناس عاطفة الشكر وعرفان الجميل ، فيعيدهم إلى طاعة الله . ولكنه ما أن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس محاكمته ، فكان نصيب كتبه التحريق ، ونصيبه السجن الدائم ، حتى وافته منيته .

وجاليليو يرى رأيا في الكون فيسجن لذلك الرأي ، مع أن رأيه ليس من أمور الدين في شيء .

فرض سلطانها على الملوك :

١١١ ــ بالغت الكنيسة في شدتها ، كما رأيت ، ولم ينجح حتى الملوك من طغيانها ، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة ، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالاخرى إلا اتصال محبة

وسلام ، أو حرب وخصام ـــ كان ذلك سببا في أن صار البابا لا سلطان لأحد من ولاة الأمر عليه ، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار المجامع ، لا بتعيين ملك أو أمير ، مهما تكن قوته وسطوته ، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأي نوع من أنواع الخضوع لأي ملك من الملوك ، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذي لا يرد على كل مسيحي ، مهما تكن مكانته ، يستوي في ذلك الأمير والخفير ، والراعي والرعية ، فليس لأي ملك سلطان على البابا ، والبابا له سلطان على كل ملك ، لأنه مسيحي ، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين ، ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيسا على الحواريين من بعده ، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه ، ويتكلم بخلافته ، وينفذ بسلطانه ، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح ، وحارب دينه .

قرارات الحرمان تنـاك الملوك :

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك ، كما فرضوها على سائر الناس ، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجامع بحرمانهم ، وطردهم من حظيرة المسيحية ، ولعنهم ، فقد جاء في كتاب سوسنة سليمان : « المجمع الثالث عشر انعقد في ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥ بأمر البابا اينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمانه ، وهذا المجمع تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقا » .

لم ينج اذن الملوك من قرارات الحرمان والطرد ، وان لذلك أثره في نفوس شعوبهم ، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم ، وهم في ذلك لا يتمنعون عن أن يثيروا القالة في رجال الكهنوت ، ويكبروا صغائرهم ، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم ، حتى ينفردوا بالاحترام ، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم .

١١٢ ــ هذه هي الكنيسة في معاملتها للناس ، عنف وزجر وقسوة ، لا ارشاد وهداية واصلاح ، وهي تضرب كل من يعترض طريقها ، لا تفرق بين سائس ومسوس ، وحاكم ومحكوم ، وراع ورعية .

وقد احتكمت لهذا بذوي السلطان ، فكان لا بد من مغالبة بينهما . ولم يكن الأمر مقصورا على الأذي البدني تنزله بمن يخالفها ، ولو فيما ليس بينه وبين الدين نسب ، ولا يتصل به بسبب . بل تجاوز ذلك إلى ارهاق المسيحيين باتاوات مالية يفرضونها ، وضرائب كبيرة يأخذونها ، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يئنون تحت نير ثقيل ، سواء في ذلك من خالف ومن وافق ، فالمخالف بالعذاب يهرأ به جسمه ، والموافق بالمال يثقل به،وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحيانا وما يجمع من أموال الفقراء والمحدودين التي حصلوا عليها بالكد واللغوب يتوزعه رجال الدين بينهم ، وينفقونه اسرافا وبدارا في سبيل تحقيق رغباتهم ، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله ، وينفقونه في غير حله أيضا ، وبذلك انغمسوا في شر ما في هذه الدنيا ، وتركوا لب الدين .

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة :

١١٣ ــ ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم ، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس ، ولا معقب لما تقول في هذا التفسير ، أو في أي رأى تبديه ، أو أمر تعلنه ، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول . وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحي إذ لم يستسغ علقه قولا قالته أو مبدأ دينيا أعلنته أن يروض عقله على قبوله ، فإن لم يستطع ، فعليه أن يشك في العقل ، ولا يشك في قول البابا ، لأن البابا خليف ، لسلسلة الخلافة التي بيناها .

ولقد كانت تعلن أمورا ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم ، وم تعرض له المسيحيون الألوان ، لا المجامع الأولى ، وهي أمور غريبة جد

الغرابة ، بعيدة عن القبول في أحكام العقل جد البعد ، وتلزم المسيحيين بها ، وتفرضها عليهم فرضا ، ومن قال كلمة فيها فالويل له ، ينزلونه به في الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان في الآخرة .

ونذكر القارىء على سبيل المثال مسألتين كان لهما أثر في الفكر المسيحي ، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون في جرأة ، داعين إلى اصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى . هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ، ومسألة الغفران .

مسألتا الاستحالـة والغفـران :

١١٤ ــ أما مسألة الاستحَالة فالأساس فيها ما علمت في شرح الشعائر النصرانية ، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزا ويشربون خمرا ، ويسمون ذلك العشاء الرباني ، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح ، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك ، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه ، وذلك أمر غريب في العقل ، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة ، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط . اذ كيف يتحول الخبز لحما ، وكيف يصير لحم شخص معين معروف ؟ وكيف تتحول الخمر دماً وتصير دم شخص معين معروف ؟ . ذلك غريب ، بل مستحيل التصور والقبول في العقل ، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته ، والا عرضوا للطرد والحرمان ، وهل ورد هذا الأمر في الكتب المقدسة ، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل ، انه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته في أحد مجامعها ، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم .

ولقد خالفت في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من

الكنائس ، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير ، بينما تراه الكنيسة اللاتينية ، ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة ، ويعتقدون أنها غير ممكنة في العقل ولا سائغة في الفكر .

١١٥ ــ أما المسألة الثانية فهي مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا ، فقد قررته الكنيسة حقا لنفسها في المجمع الثاني عشر أيضا .

وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشأن : « انهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال : « ان يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الايام الاولى ، قد أعلم المجمع المقدس ، وأمر بأن تحفظ للكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي ، المثبتة بسلطان المجامع » .

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرات غير مفيدة ، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما ، والمثبتة في الكنيسة ، لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل .

افراط الكنيسة في استعمال حق الغفران : .

هذا قرار المجمع ، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوي جبار ، وهو سلطان مسح الذنوب ، وغفرانها مهما يكن مقدارها ، ومهما تكن قد دنست النفس ، وأركست القلب . ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس ، حتى لا يؤدي الافراط في منح الغفران الى ترك التهذيب الديني ، وهجر تعاليم الكنيسة ، والعبث بهدى الدين ، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع ، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم

الافراط في الاعطاء والمنح؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق، أن أفرطوا في اعطائه افراطا شديدا وأنشأوا له صكوكا تباع وتشترى، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا، ومتعة من متعتها، و بذل العصاة في سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص، ما دام ذلك يفتدى بمال قل أو جل، وهذا نص صك الغفران الذي يباع بيع السلعة:

صورة من صك الغفران:

«ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وان كانت محفوظة لأ بينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحوا جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأردك حديثا الى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى انه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب، و يفتح الباب الذي يؤدي الى فردوس الفرح، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس».

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام، وتغفر ذنوب العاصي ما تقدم منها وما تأخر، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهرا، ثم لا يصير قابلا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا،

ومهما ينغمس في المعاصي، كأن ذلك الصك جواز المرور الى النعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس .

هذا ما يدل عليه الصك، هذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه في روع الناس تمكينا لسلطانها، ورغبة في نقودهم التي يبذلونها للكنيسة في سبيل الحصول على ذلك الصك الذي يكون سر الأمان، وطريق الوصول الى الغاية.

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة ، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا . ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق في الغفران ، والشخص قوي يستقبل الحياة ، ولا يودعها ويقبل على منعها ، ولا يدبر عنها ، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ثم اغرقت في المغالات فاتخذها رجال الدين باباً من أبواب الكسب للكنيسة ، ثم انهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق ، وما قد يحرمانه ، وبذلك طم السيل ، حتى جاوز الحزام الطبيين .

سلوك رجال الدين الشخصي :

١١٦ ــ وهل كان رجال الدين في سلوكهم الشخصي، وفي استمساكهم بعروة الأخلاق، وهدى الدين يستحقون أن يبذل الناس في طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم، وقبولها بقبول حسن، متهمين العقول ان حاولت التمرد والعصيان، لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظنة، منزهة عن الريبة، قد سموا بأنفسهم، حتى ساموا في العلو القديسين والشهداء والصالحين، وجعلوا أنفسهم عنوان العفة، وبخع النفس عن الشر، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم أو عرضوا أنفسهم للفداء كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب، وتأخذهم الأنظار المتعقبة من

كل ناحية من نواحي الحياة، حرموا على أنفسهم الزواج اذ سادت الرهبانية، وسيطرت على نفوسهم، فجعلوا زواجهم حراما، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب، و يقوموا على سدانتها، و يرعوها حق رعايتها، ولكن ما ان توردت عليهم الأموال، وكثرت أمامهم أسباب النعيم، حتى فكهوا فيها مترفين وانغمسوا في الملاذ يستطيبون أطيبها، و يطلبون أشدها، ولما مكنوا لأنفسهم من السلطان، اندفع بعضهم في طلبها اندفاعا، ومنهم من استهتر في سبيلها استهتارا، وخرجت حال بعض أولئك المنغمسين في الخطايا من السر الى الجهر، ومن التستر الى التفحش، ومن الخفية الى الاعلان، واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح، بعد أن حرموا على أنفسهم النكاح؟ ولم تتمنع النساء المتصلات بهم من أن يعلن ذلك مفاخرات به، وجاء من ذلك الا تصال الآثم أولاد لا آباء لهم، ولكن لهم حظوة، لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم، كما يعرفون أبناءهم، فيمكنون لهم بسلطانهم الديني سلطانا دنيو يا.

ولقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة العالية الدينية أنفسهم، أما التحوت من رجال الدين ففي فقر مدقع، وفي حياة هي أقرب الى الدين المسيحي من حياة كبرائهم، وذوي السلطان فيهم وفي الشعب.

ابتداء الاصلاح:

١١٧ ــ هذا سلطان الكنيسة، وتلك حال رجالها، يتدخلون في كل شيء، ينقبون عن القلوب، وقد سترها علام الغيوب، و يرهقون من يتهمونهم بأقسى أنواع العذاب، و يفرضون سلطانهم على الراعي والرعية، حتى يتململ من تحكمهم الملوك والأمراء، وذوو الفكر من الشعوب، ويجبون الأ تاوات و يفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون، لا رجال الدين المهذبون، و يعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف

المذنب في آخر أيامه في الدنيا، وأول أيامه في الآخرة، ثم يغالون، فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوي الصحيح، و يكتبون في ذلك صكوكا يبيعونها بثمن قليل أو كثير، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو، وحولهم الناس ينظرون.

ولقد بلغ السيل الزبى في العصر المشهور في التاريخ الأوروبي بعصر النهضة، وفيه نهضت الارادة الانسانية، والعقل الانساني يفرضون وجودهما، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا نور الله في الاسلام، والتدين الحقيقي فيما يدعوا اليه اهذا الدين، اذا اتصل الشرق بالغرب فيما قبس الغرب من دراسات تلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص، ومن الشرقيين بشكل عام، وفيه علم أن لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب، وأن لا وساطة بين الله والعبد، وأن الله قريب ممن يدعوه، ويجيب دعوة الداعى اذا دعاه.

دعوة بعض رجال الدين الى الاصلاح:

حينئذ أخذت الأنظار المتربصة تحصى على رجال الدين ما يفعلون، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم، وأخذوا يدعون زملاءهم الى اصلاح حالهم، ليردوهم الى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت، وقبل أن ينفض الناس، وقبل أن يحملهم العامة على الاصلاح.

ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس، ولكن كان نصيبهما أن اعدما تحريقا بالنيران، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذي انعقد من سنة ١٤١٤ الى سنة ١٤١٨، ولقد قرر ذلك قتل هذين العالمين حرقا بالنار، لأنهما دعوا الكنيسة الى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان في محو الاثم أو تقريره، وانما التوبة مع رحمة الله هي التي تمحو الآثام، وتطهر النفس من الخطايا، ولقد تقدم الى المجمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك في ذلك الدفاع:

«لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعليمه، فقر الرأي على القاء القبض عليه، وفوض المجمع الى بعض أعضائه أن يفحصوا مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها، ولكنهم لم يستفيدوا شيئا.. ووجدوا في مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن أضاليل، وقد خولوه الحرية ليوضح أقواله في كل منها، وحرضوه على الخضوع لحكم المجمع، وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله، فأبى أن يمضيها، و بقي مصرا على غيه، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه الى المضايقة الأخيرة، بل حاول مرارا أن يرده عن عناده فحكموا أولا على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك، لكنه لبث مصرا على عناده، فحينئذ حطوه عن الدرجات المقدسة حطا احتفاليا، وأسلموه لحكومته فحكمت عليه بالحرق حيا بمقتضى نواميس المملكة ثم نال جيروم تلميذه وقرينه في العناد هذا العقاب نفسه.

أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدني أن يعمل بموجب شرائع المملكة التي كانت تعطي الملك حقا في أن يعاقب من يفسدون النظام المدني بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور».

هذا ما يقوله الكتاب المدافعون عن الكنيسة، ومهما يكن قولهم في براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين اصلاحها. فمما لا شك فيه أنها لم تصغ إلى أقوالهم، بل عاقبتهم عليها بالحرمان، فسلبتهم المنصب الديني، ثم عاونت بذلك على قتلهم أفظع قتلة، ان لم تكن هي الفاعلة.

ابتداء الاصلاح من غير رجال الدين:

١١٨ ــ كانت ارهاصات الاصلاح تبدو الوقت بعد الآخر، و يظهر به رجال استعدوا للفداء زمنا بعد زمن، وكانت البلاد التي تظهر فيها آراء الاصلاح في شمال أوروبا وانجلترا، وفرنسا، لأن فرنسا قد ذاق

بعض ملوكها أذى الحرمان من الكنيسة، وأحس الفرنسيون بشدتها، وانجلترا رأت من سلطان البابا عليها تدخلا في شئونها، ولأن أمم شمال أوروبا قد اقترنت حضارتها بالدين فكانت شديدة الغيرة عليه، قوية الرغبة في فهمه على وجهه، جاعلين قبلتهم الكنيسة ورجالها، فعثروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على عيوبهم، فأرادوا أن يصلحوها من غير ان يهدموها، لذلك ظهرت حركات الاصلاح ووجدت آذانا مصغية في تلك البقاع، ولم ينبثق فجر القرن السادس عشر حتى انبثقت معه أصوات قوية جريئة تدعوا الى اصلاح الكنيسة، وتنقد حالها وتندد بأعمالها، وتنشر عيوب القوامين عليها، وعساهم يصلحون أمرهم، ويعودون الى آداب الدين وتهذيبه.

الدعوة الهادئة :

وقد ظهر في فجر القرن السادس في أزمان متقاربة أصوات رجال مصلحين، ومن أشدها ظهورا صوت أرزم، وقد ظهر بالأراضي المنخفضة، وعاش من سنة ١٤٦٥ الى سنة ١٥٣٦. وقد أخذ يدعوا الناس الى قراءة الكتاب المقدس عندهم، والى تهذيب عقولهم، وتنمية مداركهم، ليستطيعوا فهمه، والانتفاع به، وأدرك مراميه وغاياته، وأخذ يدعوا الى اصلاح الكنيسة، ويظهر أنه لم يوجه دعوته الى الشعب، بل وجهها الى الحكام المستنيرين، وإلى رجال الكنيسة أنفسهم، فقد كان البابا ليو العاشر صديقه، وكان ممن يقدرون آراءه، ويعجبون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره، وقد سار في طريق ذلك الاصلاح السلمي مجتهدا الاجتهاد كله في أن يحافظ على مركز البابا وقداسته، حريصا على ألا ينال أحد منهما، وألا يخلط دعاة الاصلاح بين اصلاح الكنيسة ومراكز رجالها، وما يستحقون من اجلال وتقديس، فهو يرى أن الاصلاح واجب على أن تقوم به الكنيسة في داخلها، أو يعاونها الحكام على اصلاح نفسها، ولذلك عندما رأى ثورة لوثر العنيفة، وما أدت اليه من

مس سلطان الكنيسة ونقص ما لها من قداسة، نبذ آراءه ولم يعاونه.

وظهر كذلك في هذا الابان تومس مور من ١٤٧٨ الى ١٥٣٥، وقد ظهر بانجلترا، ودعا الى اصلاح الكنيسة أيضا بالطريق السلمي، ولذلك دعا بنفسه الى وجوب احترام سيادة البابا، وأن يكون له السلطان الديني على الجميع.

النقد العنيف:

١١٩ ــ ولكن دعوات أولئك السلمية لم تفد فائدتها، ولم تنتج ثمراتها، وان شئت فقل ان تحول الأفكار وانتقال الفكرة الى الشعوب، واصطدام الكنيسة بالمفكرين و بعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفا، وجعل خطوات الدعاة أسرع مما يريد أولئك السلميون.

وأشد من ظهر من أولئك تأثيرا وأقواهم نفوذا: مارتن لوثر، وزونجلي، وكلفن، ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة.

لوثـــــــر:

أما مارتن لوثر، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من أبو ين فقيرين، ولكن أباه أجهد نفسه، وأراد أن يصل به الى أقصى درجات الثقافة، ومكن له ليكون قانونيا، فأرسله الى الجامعة، ولكنه عجز عن اتمام دراسته القانونية، وعكف على دراسة اللاهوت، وانصرف اليها، لأنه أحس بنزعة دينية قو ية تدفعه الى الانقطاع لذلك، وقد كان شديد التورع، مبالغا في تقدير سيئاته، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة، حتى لقد قال بنفسه انه لن ينجو من عذاب الجحيم الا برحمة الرب الرحيم، وكان لهذا الاحساس الديني الدقيق، وذلك النزوع اللاهوتي موضع رعاية رجال الكنيسة، حتى لقد أوصوا به خيرا أولى الأمر من رجال الدنيا، فعين مدرسا للفلسفة، وظل عاكفا على هذه الدراسة التي كان يشك في صلاحيتها، اذ

كان يدرس فلسفةَ أرسطو، وما كان في نظره الا من عبدة الأ وثان، ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة في ذلك العصر كانت تحت ظل الدين، وفي خدمته، و يقوم بها رجال الدين أنفسهم، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة له عن دراسته الدينية، بل كانت تتميما لها.

ولقد دفعته نزعته الدينية الخالصة، واجلاله للكنيسة ورجالها الى أن يحج الى روما، ليتيمن بلقاء رجال الدين، ولكي تحل عليه بركات روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدسة، ولكنه ما ان وطئت قدماه أرض روما حتى رأى ما صدم حسه، وأزعج نفسه، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة، فوجد مدينة لاهية عابثة، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم المفاسد، وأحاطت بهم الريب، وظنت بهم الظنون، وجد جرأة على الخطايا، واستهانة بأحكام الدين. ووجد الذين تخيلهم قديسين صالحين، وأنهم ملائكة الله تسير على الأ رض، قد انغمسوا في الرذيلة، ورتعوا في حماها زاعمين أن سحائب الرضوان قد نزلت عليهم، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت في السماوات والأ رض وسر التوبة، وأبواب الغفران، يغفرون لمن شاءوا ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

رأى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الديني، ذو النفس اللوامة، الذي يرى أن خطايا الانسان أكبر من أن يمحوها هو، وأنه لا سبيل لغفرانها الا أن تسعها رحمة الله.

لذلك شده من هول ما رأى، وتحير بين ما تخيله في رجال الدين من زهادة، والواقع المستقر الذي صدمه صدمة عنيفة، ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى انتقل من الحيرة الى الاستنكار، لذلك عاد الى ألمانيا حانقا مستنكرا بعد أن ذهب راضيا مقدسا.

ولقد أخذ يعلن من ذلك الابان أن التبرك بالمقدسات، والحج اليها

وتكرار الصلاة لا يجدي العاصي، ولا يغنيه عن توبة نصوح، وقدم مطهر، ورجاء رحمة الرحيم، وأن أحدا من ا لخلق مهما تكن قدسيته لا يملك لأحد غفرانا، ولا يستطيع أن يستر ذنبا قد ارتكب.

١٢٠ ــ كان لوثر بعد عودته مأخوذا بهذه الافكار، قد استولت على نفسه، وسوغ له كل هذا أنه قد عرا ثقته برجال الدين ضعف، وان لم يعتزم الثورة عليهم أو على آرائهم، ولكن الحوادث كانت تدفعه الى أن يعلن استنكار آراء رجال الدين، والجهر بذلك، وذلك لأن البابا ليو أراد أن يعيد بناء كنيسة بطرس في روما، وذلك يحتاج الى مقدار من المال غير يسير، فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران ببيعها، فذهب الراهب تنزل الى ألمانيا، ومعه تلك الصكوك التي نقلنا لك نموذجا منها فيما أسلفنا من القول، وأخذ يعلن من أمرها، و يبالغ في قدسيها وسرها.

عندئذ ثار لوثر الذي لا يعرف أن شيئا يستر الذنب الا الندم على ما كان، والاقلاع عنه فيما يكون، ورجاء رحمة الديان، والذي رأى في رجال الدين ما رأى، ثار لوثر على تلك الصكوك وكتب في بطلانها احتجاجا علقه على باب الكنيسة.

ولقد كان لذلك أثره في العامة والخاصة، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت أو الاغضاء، فقد أرسلت اليه تدعوه الى الحضور لمحاكمته أمام محكمة التفتيش التي كانت تدبيرا اتخذته المجامع ذريعة للقضاء على مخالفيها.

ثورة لوثر على الكنيسة:

وهنا نجد بعض الأمراء يتدخل، فيوصيه بألا يجيب طلبها، فلم ير البابا بدا من أن يصدر قرارا بحرمانه، ويعده زائغا، وهنا تأخذ الحمية لوثر، و يشتد في دعوته، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان، حتى انه ليحرق

في وسط وتنبرج، والجموع حاشدة، حرمان البابا وقرار زيغه، ولم يبق الا أن تنفذ السلطة المدنية قرار الحرمان، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية، أثرا لقرار الحرمان الديني، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته، ولكنه طالب البابا بأن يقنعه بخطئه فيما ارتأى. فلم يجب الى ما طلب، فانفض المجمع من غير نتيجة في هذا، ولكن الامبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية الا أن أمير سكسونية حماه.

ومن هذا الوقت أخذت تخضع دعوة لوثر لحكم الأحداث السياسية، فتجد سلما من الدولة، اذا كان الامبراطور مشغولا بحرب، ولا يريد اثارة فتنة. وتجد حربا اذا خلا الامبراطور لهم، وفي كلتا الحالتين تزداد الدعوة حدة و يزداد أتباعها عددا، و يشتد ساعدهم بموالاة أمراء أعزاء في النفرة.

وفي سنة ١٥٢٩ حاول الامبراطور أن ينفذ قرار الحرمان الصادر سنة ١٥٢١ ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك، ومن ذلك الحين سموا البروتستنت أي المحتجين، ثم جرت الأمور سلما فحربا متداولين، حتى اذا مات لوثر، وكان الامبراطور قد خلص من كل الحروب التي تشغله أنزل بالبروتستنت أقسى العذاب وأشده بلاء، ثم يعقب ذلك صلح بين الفريقين.

لوثر لم يرد هدم الكنيسة :

١٢١ ـ لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون الى هدم الكنيسة، ولا الى محاربة سلطانها، بوصف كونها مرشدة و واعظة ومبينة للناس شئون دينهم، ولكنه كان يريد اصلاح حال الكنيسة ورجالها، وحملهم على الجادة وأعطاءهم من الحق ما أعطته الكتب المقدسة، ووصايا رسلهم، والمأثور عنهم وهو لم ينظر الى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطيء، ولا يأتي الباطل الى قوله، بل نظر اليه على أنه كبير المرشدين الواعظين.

ولما أراد لهم الصلاح ـ وكان يائسا من أن يقوموا هم بذلك ـ دعا الأمراء الى أن يتدخلوا ، وقرر أن لهم عليهم سلطانا ، وأن لهم الحق في عزل رجل الدين اذا لم يقم بما يأمره به الدين ، ووجد أن جزاء من فساد رجال الدين يرجع الى عدم الزواج .

ورأى أن المنع منه لم يكن في المسيحية في عصورها الأولى ، فقرر حقهم في الزواج ، وتزوج هو فعلا مع أنه من رجال الدين ، وكان زواجه من راهبة .

ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الانجيل ، وذلك من أسباب غلوها وفقدها الرقيب ، فجعل لكل مسيحي مثقف الحق في فهمه ، واشتغل بترجمته الى الألمانية ليقرأه كل ألماني .

وأنكر أن المسيح يحل في بدن من يأكل العشاء الرباني . فقد أنكر استحالة الخبز الى عظام المسيح المكسورة . وأنكر استحالة الخمر الى دم المسيح ، وحلولهما في جسم الآكل . واكتفى بكون العشاء الرباني تذكيرا لما قام به المسيح من فداء للخليقة في زعمهم ، وأن يعتقد المسيحي أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء .

هذا كله مع انكاره حق الكنيسة في الغفران ، ذلك الحق الذي كان عود الثقاب الذي أشعل ثورة لوثر ، وكانت منها تلك النيران التي لم تستطع الكنيسة لها اطفاء .

زونجلي وأعماله :

١٢٢ ـ وفي الوقت الذي كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من ذوي السلطان ، كان في سويسرة صوت قوي آخر ينادي بما يقلوب ما نادى به لوثر ذلك ، ذلك هو زونجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) فقد آلمته حال الكنيسة ودعا الى مثل ما دعا اليه لوثر في مسائل الدين ، وقد

ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران كما ابتدأ لوثر ، وقد مات أثناء صراع وقع بين أنصاره ، والمعتنقين لمبادئه . وأنصاره الكاثوليك .

وآراؤه في الجملة تتقارب من آراء لوثر، ولقد كان يرى أن العشاء الرباني مناولة تذكارية لموت المسيح وفدائه لخطيئة الخليقة في زعمهم، وأن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط، و يفسر ما جاء خاصا بالعشاء الرباني في انجيل متى بمعناه المجازي، وهذا نص ما جاء في ذلك الانجيل في اصحاحه السادس والعشرين: وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز و بارك، وكسر، وأعطى التلاميذ، وقال: «خذوا، كلوا هذا هو جسدي» وأخذ الكأس وشكر، وأعطاهم قائلا: «اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا».

ودعوة زونجلي هذه، وان كانت تتلاقى في مبادئها في الجملة مع مباديء لوثر كانت منفصلة منها، فلم تتوحد الدعوتان، بل كانت كلتاهما تعمل في محيط اقليمها، بيد أن حركة لوثر كانت أوسع دائرة وأسرع انتشارا، لسعة الاقليم الذي نشأت فيه، ولرعاية بعض الأمراء لها، بل لاعتناقهم مبادئها، ولأن الأحوال السياسية في ألمانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيوع والانتشار

كلفن وأثره في الاصــلاح :

١٢٣ ــ في الوقت الذي كان فيه هذان الرجلان يعملان ويجاهدان كل بطريقته، فلوثر بطريقته السلمية التي خالطها العنف، وزنجلي بطريقة الصراع والمنازلة، حتى مات فيه.

في هذا الوقت كان رجل آخر ظهر في فرنسا وهو كلفن (١٥٠٩ــ ١٥٦٤) قد ولد بفرنسا، ونشأ بها، وتثقف ثقافة قانونية، ولكنه مال بعد

تخرجه في القانون الى الدراسات الدينية ، وقد كانت حركة لوثر قد ذاعت وشاعت في ربوع أوربا ، وما ان أعلن كلفن آراءه حتى اضطر الى الفرار بعقيدته الى جنيف في سويسرا ، وهناك ألف وكتب ، وأخذ يعمل على نشر مباديء المذهب البروتستنتي ، و ينظمها بعد موت لوثر، فتنظيمها على الشكل الأخير يرجع الى كلفن أكثر مما يرجع الى أي رجل آخر، وان كان باذر البذرة سواه، بل ان بذور ذلك المذهب قد كانت أقدم تاريخيا من لوثر نفسه، وقد نوهنا الى بعض هذا الكلام في المجامع .

و يرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها ، وعلى الحاكم المدني مساعدتها ومعاونتها وحمايتها ، وذلك ليكون السلطان الديني غير خاضع لحكم الحكام ، وهو يرى أن المسيح لا يحضر لا بشخصه ولا بروحه في العشاء الرباني ، و يعتبر تناول العناصر المادية رمزا للايمان . و يقول كما يقرر صاحب كتاب الأصول والفروع في العشاء الرباني : «يشير العشاء الرباني أيضا الى مجيء المسيح ، كما يشير الى موته ، فيكون تذكارا للماضي والمستقبل ، فالعبرة في العشاء الرباني للذكرى ، لا حضور المسيح ماديا أو روحيا» .

انشاء كنائس للمصلين :

١٢٤ ــ كانت جهود هؤلاء القادة وأتباعهم ، وعيوب الكنيسة ، وسوء حالها وحال القوامين عليها ، وشدة ضغطهم سببا في ذيوع الآراء التي تخالف رأي الكنيسة ، وقد ابتدأت الحركة بطلب اصلاح الكنيسة على أن يقوم بالاصلاح رجال الكنيسة أنفسهم ولكنهم أنغضوا رءوسهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، ورفضوا كل دعوة للاصلاح ، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحيانا كثيرة ، والاهمال أحيانا قليلة . فلما استيأس مريدو الاصلاح من أن يقوم الكنسيون باصلاح حالهم ، وأن يرعوا الديانة

حق رعايتها اتجهوا الى الحكام طالبين أن يتدخلوا لاصلاح الكنيسة، كما حاول لوثر، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها، ولكن الحكام تقاعسوا، ومنهم من لم يحاول اصلاح الكنيسة، بل حاول القضاء على طلاب اصلاحها، وأنزل بهم اضطهادات و بلايا وشدائد ومذابح، كما حدث لبروتستنت فرنسا، وكان ذلك اما تعصبا للكنيسة، واما مجاملة، واما كراهية للمصلحين، لأن منهم من كانت لهم آراء اصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم في اصلاح الكنيسة، وقد كان الحكم استبداديا مطلقا، بلا نظام يقيد الحاكم، و يلزم المحكوم.

فلما يئس طلاب الاصلاح من الحكام و يئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا الى أن يجعلوا لآرائهم جماعة، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآراؤها غير خاضعة للكنيسة، ورافضة كل ما لها من سلطان، وأنشأوا لهم كنائس ليست معترفة لكنيسة روما بأي سلطان، وسلطة رجال الدين فيها محدودة، ولرجال الدين من الحقوق ما قرروا من مباديء، وسميت كنائسهم كنائس انجيلية[1] أي أنها لا تخضع الا لحكم الكتاب المقدس، و يقيد بأحكامه رجل الدين أمام رجل الشعب، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب، وليس لرئيس الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدسا، مساو يا لأحكام الكتاب المقدس في الرتبة والاعتبار.

وقد انتشر المذهب الجديد في ألمانيا والدانمرك والنرو يج وهولندا وانجلترا وأمريكا الشمالية وسو يسرا، وان لم تصر كلها على المذهب.

---

(١) وتسمى الكنائس الأخرى التى تجعل لرئيس الكنيسة سلطانا يعتبر فيه خليفة المسيح الكنائس التقليدية، وهي كنيسة الكاثوليك، والكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية والكنيسة الأرثوذوكسية المرقسية، وهي كنيسة القبط وغير ذلك.

أهم مباديء الاصلاح :

١٢٥ ــ والآن نلخص المباديء التي أتى بها ذلك المذهب الجديد ، نكتفي بذكر أصولها التي ترجع اليها غيرها من الفروع ، وأعظم تلك الأصول شأنا :

(أ) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحي لنصوص الكتاب المقدس وحدها (١) وجعله الحكم وحده الذي لا ترد حكومته ، ولا ترفض أوامره ، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على ما نص عليه في ذلك الكتاب فما وافقه قبل ، على أن الكتاب قد ورد به ، وما خالفه رفض ، ولو كان قد صدر عن أكبر رجال الكنيسة شأنا في الماضي أو الحاضر.

ولذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان في ذلك : «انهم جميعا متفقون في المعتقدات على مجرد ما في الكتاب المقدس فقط ، فلا يخضعون لشيء من التقاليد التي لا يوجد لها فيه رسم أصلا ، ولا الى أقوال أحد من الآباء أو المجامع الا اذا كان موافقا لنصوصه لفظا ومعنى ، أما تفسير الآيات الغامضة والتي لم يوضحها الوحي الالهي ، فلا يمارون أحدا فيها الا اذا كان التفسير ينافي ما كان معناه واضحا في غيرها من تعاليم الكتاب» .

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الشرقية وغيرهما من الكنائس التقليدية لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحي ، بل يعتبرون معه الرسائل غير المسطورة في ذلك الكتاب وتعاليم المسيح التي نقلت إلى البابوات خلفا عن سلف مصدرا أيضاً ، ويسمون ذلك المصادر التقليدية .
ويقول في ذلك صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الذي ترجمه يوسف البستاني في ذكر قرارات المجمع الترنديتي :
« ان المجمع الترنديتي المقدس الملتئم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسي الرسولي لاعتباره أن حقائق الايمان ورسوم الآب متضمنة في الصحف المكتوبة وفي التقليدات المكتوبة ، وهي المنقولة عن فم يسوع بواسطة الرسل ، أو المنزلة على الرسل أنفسهم بالروح القدس ، وقد اتصلت الينا تسليما اقتفاء بأثر الآباء الأرثوذكسيين قد قبل جميع أسفار العهدين القديم والجديد ، ثم التقليدات أيضاً المتعلقة بالايمان والآداب بما أنها بارزة من فم يسوع المسيح ، أو ملقنة من الروح القدس ، ومحفوظة في الكنيسة بالخلافة المتواصلة ويعتنقها بنفس الاكرام والاحترام الذي تعتنق به الكتب المقدسة » .

فـهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب وقد كان تحكيم الكتاب وحده سببا في جعل رجل الدين غير مطاوع الا فيما ورد في الكتاب.

وقـد كـان جـعل سلطان الكتاب شاملا لرجل الدين، ولرجل الشعب سـبـبا في أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصورا على رجال الدين، فأزيل ذلك الحجاب الذي أقيم بين المسيحي و بين كتابه. إذ اقامه رجال الدين لـيحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم، و بذلك يكون الدين ما تنطـق به أفـواههم وليس لأحد أن يعقب على قولهم، لأن باب التفسيرقد أقفل دون غيرهم فلا يستطيعون ازالة رتاجه، ولا فتح أغلاقه، فألغى المذهب الجديد ذلـك الحـجـاب وفـتـح باب التفسير لكل مثقف ذي فهم، واذا كان ثمة نـص لـم يـفهم توقفوا عن فهمه، فان أبدى رجل الدين رأيا في فهمه قبلوه الا اذا خالف نصا ظاهرا لا مجال للتأو يل فيه .

عدم الرياسة في الدين :

(ب) ليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة، بل لكل كنيسة ريـاسـة خـاصـة بـهـا، والـريـاسـة الـكنسية التي تستمد الخلافة من أحد الحـواريين أو من المسيح نفسه لا وجود لها عندهم، بل ان الكنيسة في كل مـكـان لـيـس لها الا سلطان الوعظ والارشاد، والقيام على تأدية الفروض والـتـكـالـيف الدينية و بيان الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك.

ليس لرجل الدين الغفران :

(جـ) واذا كـانـت الـكـنـيـسـة لـيـس لها سلطان الا البيان لمن لا يـسـتـطـيع بيانا والارشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه فـلـيـس لها سلطان في محو الذنب، أو ستره، أو [illegible] [illegible] بالنسبة

ومسحها سواء أكانت تلك هي المسحة الأخيرة عند الاحتضار، أم كانت قبل ذلك، فكل ذلك ليس لها فيه سلطان، لأنه من عمل الديان. وقد علمت أن صكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب الذي اندلعت منه الثورة على الكنيسة، وتبعها تقصي عيوبها، وتتبع نقائصها. وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة، و بينا أنها غالت فيما زعمته لنفسها في ذلك من حق، والأساس في رفض الكنيسة في هذا: كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وكما أن ذلك الأساس أدى الى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى الى أمر آخر، وهو منع الصلاة لأجل الموتى، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سيحاسب عليه ان خيرا فخير، وان شرا فشر، وأدى أيضا الى أن طلب شفاعة القديسين لا قيمة له، لأنه لا يغير عمل الشخص من صالح الى طالح.

وفي الجملة انهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع الى عمل الشخص وعفو الاله، وتوبة العاصي وندمه على ما فات ولومه نفسه على ما كان وكل قول يجعل غفران الذنب أساسه غير ذلك رفضوه، ولم يلتفتوا اليه.

عدم الصلاة بلغة غير مفهومة:

(د) ولقد كان ذلك المبدأ الذي يجعل الانسان يدين بعمله وحده، ومبدأ أن لا سلطان للكنيسة على القلب والعبادة، كان هذان المبدآن سببا في أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد، لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب اليه، والقيام بالخضوع الكامل له، والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء الى المعبود، فوجب أن تكون بألفاظ يفهمها العابد ليردد معانيها و يقصد مراميها، وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك. لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه.

رأيهم في العشاء الرباني:

(هـ) انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الرباني الى أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التي ارتكبها آدم، وتحملت الخليفة من بعد وزرها، وتذكار لمجيئه ليدين الناس، فهو تذكار للماضي والمستقبل كما جاء في بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحول الخبز الى جسد المسيح، والخمر الى دمه.

والكنيسة قد أصرت على ذلك اصرارا. وهذا قرارها في المجمع الترنديتي في ذلك الشأن، فهي تقول بلسان أعضائه: «قد اعتقدت كنيسة الله دائما بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقي ودمه الحقيقي مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر، وأن كلا من الشكلين يحتوي ما يحتوي كلاهما، لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل، كما أنه هو كله أيضا تحت شكل الخمر وجميع أجزائه، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز الى جوهر جسد ربنا، وكامل جوهر الخمر الى جوهر دمه تعالى، وهذا التغيير قد دعى بكل صواب، فيلتزم اذا جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للاله الحقيقي، لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذي عبدته الملائكة عن أمره تعالى، حينما أتى على العالم، وهو نفسه الذي سجدت له المجوس خارين على أقدامه، وله نفسه سجدت الرسل في الجليل».

هذه عقيدة الكنيسة في العشاء الرباني، لم يستسغها لوثر وأشياعه، وخلفاؤه من بعده، وانتهى أمرهم الى أن رفضوا ذلك التحول الذي تفرضه الكنيسة، وتلتزم به، وان كان بعيدا عن المعروف المألوف، و بعد أن رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الرباني تذكارا بالفداء وتذكارا للمجيء وفي ذلك عظة واستبصار.

انكار الرهبنة :

(و) انكر أولئك المصلحون لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم بها و يعتبرونها شريعة لازمة، يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية أن تخلى عنها، ولقد رأوا ما أدى اليه ذلك الحظر من كبت للجسد الانساني، وتعذيب له من غير ضرورة، ولا نص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك، بل لقد رأوا ما أدى اليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الانسان في رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من شقتها بالحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وطفق يغترف من ورد معتكر بلآثام، مرنق بالمفاسد، وترك المنهل العذب الذي حللته الشرائع، و يتفق مع ناموس الاجتماع الانساني.

عدم اتخاذ الصور والتماثيل :

(ز) منع البروتستنت اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها، معتقدين أن ذلك قد نهى عنه في التوراة، فقد جاء في سفر التثنية : «لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأ رض من أسفل، وما في الماء من تحت الأ رض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب الهك غيور أفتقد ذنوب الآباء في ا لأ بناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع احسانا الى ألوف من محبى، وحافظى وصاياى».

ولا شك أن ما نهت عنه التوراة يجب الأخذ به ما دام الجميع يؤمنون بالتوراة، وكتب العهد الجديد، وما دام لم يرد عن المسيح أو عن الرسل ما يبطل ما جاء في التوراة.

ولقد أثبت الأستاذ أمين الخولي بالسند التاريخي أن ذلك التحريم قد قبسه النصارى المصلحون من نور الاسلام.

المسيحيون لم يسيروا في منطقهم الى أقصى مداه:

١٢٦ ــ هذه أعظم المسائل التي خالف بها المصلحون في المسيحية ما عليه الكنيسة، وهي لا شك خلع لسلطان الكنيسة على النفوس وقضاء على سلطان المجامع، واذا كان للحوادث منطق تسير عليه، فهل لنا أن نستنبط منطق تلك الحوادث، وما كان عساه يكشف عنه لو سار في طريقه الى أقصى مداه؟ لقد علمت في سياقنا التاريخي الذي بيناه عن أدوار المسيحية أن ذلك السياق يعلن في عباراته وفي فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد، حتى جاءت المجامع، فقررت ألوهية غير الله، وطردت من حظيرة المسيحية المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى ألوهية المسيح، وناصرتهم الشعوب المسيحية في الابان.

فاذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الديني من الكتب الصحيحة وقرروا أن يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة معا، فان المنطق الذي يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال المجامع القديمة، ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس.

فلقد قرر المجمع النيقي ألوهية المسيح، وقرر المجمع القسطنطيني ألوهية الروح القدس.

وقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه المجامع، و ينظروا الى سندها وقوته فان لم يروا السند قو يا رفضوا ذلك القرار، ولكنهم لم يسيروا في منطقهم الى أقصى مداه، فرفضوا آراء الكنيسة في أمور، أعظمها شأنا ما بيناه، ولم يتجهوا الى لب العقيدة، وهو لم يتجاوز أنه قرار مجمع فيدرسوه من جديد على ضوء ما فتحوه لأنفسهم من نور مبصر، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق في تفسيره، واستخراج الأ وامر والنواهي منه من غير أن يتخذوا الأحبار والقسيسين وسائط في فهمه، ويحكموا بذلك في ضمائرهم واعتقاداتهم.

عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح :

١٢٧- ولكنا وقد يئسنا من أن يسير البروتستنت في طريقهم الى أقصى مداه وجدنا العقول المسيحية قد تنبهت ، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ونور الاسلام قد انبلج ، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا في قوة بأن المسيح لم يكن الا رسولا ، وأنه لم يكن أكثر من بشر، قد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها ، فهذا رينان قد جهر بذلك في قوة وجرأة ، ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الاصرار على رأيه والذود عنه ، وهذا تولستوي ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح ، وتنتهي نتائج بحثه الى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح ، بل طمسها ، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضا واخفاء.

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف ، فهو يقول : «انه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي ، كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الطويلة التي شوهت وجه التعليم المسيحي ، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، و يرجع بحثنا الى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، و بولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل الى المظاهر الخارجية الدينية ، كالختان وغيره فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده ، ومن عهده ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي ، فخسر صفته الالهية الكمالية ، بل أصبح احدى حلقات سلسلة الوحي التي أولها منذ ابتداء العالم ، وآخرها في عصرنا الحالي ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع الها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، و يستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار: موسى ، والزبور، وأعمال

الرسل، ورسائلهم، وتأليف آباء الكنيسة، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله.

هو اذن ينكر ألوهية المسيح و ينكر ألوهية روح القدس، و يعتقد بأن الله واحد أحد فرد صمد، و ينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بالهام، و يعلن في جرأة أنها حرفت وعراها التغيير والتبديل، فيقول في صراحة المستمسك بالعروة الوثقى: «ان المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الالهي، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشو يه على كتب الديانة النصرانية، وهم يعتقدون بأن محمدا خاتم الأنبياء، وأنه قد أوضح في قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية، كما قالاها دون زيادة ولا نقص، وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه، و يتمسك به و يسير بموجب أحكامه، ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح، و يسمي المسلمون ديانتهم بالمحمدية، لأن محمدا وضعها بخلاف الكنيسة المسيحية التي تسير الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من الروح القدس، فكان الأحرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميها بالمسيحية».

خاتمة

١٢٨ ــ قد ظهر اذن مسيحيون يدعون الى التوحيد، وانك لترى بريق الاسلام يلمع بين السطور التي دونوها والأقوال التي نشروها ، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتهم كما فعلت المجامع من قبل، ولقد كان الأمر لا يسترعي النظر لو كان مقصورا على العلماء. بل انك لترى المسيحيين الذين تجادلهم أو تخالطهم أو تخاطبهم بالمودة ــ ان استثنيت رجال الدين منهم ــ يصرحون في بهرة المجالس وفي جهر من غير اسرار بأنهم لا يستطيعون ان يتصوروا المسيح الا رجلا عظيما رسولا من عند الله وليس ذا صلة بالألوهية الا صلة الرسول بمن أرسله.

فهل لنا أن نعتقد أن شيوع هذا على ألسنة أولئك المثقفين يؤدي الى اصلاح كامل للعقيدة، يكون شاملا للأصل، ولا يكون مقتصرا على الفرع كما فعل الاصلاح السابق واقتصر عليه ؟.

ان الاجدر لهذا ان يتجه أولئك المثقفون الى دراسة دينهم، وأن يتجه الذين يحاولون ارشادهم ــ الى بيان الأدوار التاريخية التي مرت بدينهم، والى ما أحدثته المجامع من أحداث، وكل حدث في الدين هو بدعة فيه، فان دراسة تلك الأدوار تريهم الحقائق عارية، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية أو غير كنسية، وقد حاولنا في أثناء بحثنا أن نبين أن ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس فكرتان عرضتا على العقل المسيحي، ولم تكونا في المسيحية الأولى، وذكرنا السند التاريخي في ذلك وانه لمسيحي خالص، وانه بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحي الى التوحيد ــ الى العناية بدراسة تاريخ المسيحية واعلانه لأهلها ، ونريد أن ندعو الذين يريدون نشر الاسلام بين ربوع المسيحيين إلى اعلان ذلك التاريخ ، فانهم ان دخلوا في التوحيد ، دخلوا في الاسلام بأيسر مجهود ، لأن الخطوة التالية لا تحتاج إلى أكثر من الاعلام ، والحمد لله رب العالمين .

[تم بحمد الله وتوفيقه]

ما يشتمل عليه الكتاب

٨٢ ــ رسائل رسلهم

٩٣ ــ نظرة فاحصة في الكتب

١٦٢ ـ المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١

١٦٥ ـ مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

١٦٨ ـ مجمع خليكدونية سنة ٤٥١

١٧٤ ـ المجامع الباقية

الفهرســـت

الموضـــوع	الصفحة